الفصل الأول

الامبراطورية والمسيحية حتى اعتزال دقلديانوس

دفعت رغبة السلام الامبراطور أوغسطس الى القيام بحركة اصلاح فى الجهاز الحكومى ، ومحاولة احياء الفضائل الرومانية القديمة التى أضاعتها كثرة الحروب الأهلية ، وانصراف الكثيرين الى عبادات جديدة ، كما عنى ببعث الديانات القديمة الى جانب بقية الآلهة التى كانت تلقى رواجا أيام الحروب الأهلية مثل آلهة الحظ والسلام والصحة والخير ، وأضاف الى كل منها لفظ التعظيم الذى يحمله مثل Fortune Augusta, و Pax Augusta Mercurius Augustus (١) .

ويبدو من المستحيل اعطاء صورة دقيقة عن الديانة الوثنية فى الامبراطورية الرومانية وخاصة فى تلك القرون الأولى للميلاد ، وهى الفترة التى قضتها الديانة المسيحية حبيسة قالب الاضطهاد ، قبل أن تحصل على اعتراف حكومى شأن سائر الديانات الأخرى فى الامبراطورية ، يبيح لأتباعها ممارسة شعائرهم واجراء طقوسهم . وترجع هذه الاستحالة الى أن الوثنية لم تكن فى هذه الفترة ذات طابع ثابت ، بل كانت خليطا عجيبا من المعتقدات والعبادات من مختلف البلاد وشتى الثقافات . فقد اختلطت بها منذ مدة طويلة آلهة الاغريق الأوليمبية بعد أن سادت روما بلاد اليونان ، بل لعله من الحرى القول ان الرومان نقلوا آلهة الاغريق بكل أسرارها وطقوسها ، وخلعوا عليها أسماء رومانية ، بل ان بعضا منها ظل يحمل اسمه الاغريقى . وتمثلت هذه الديانة اليونانية الرومانية فى الآلهة التى تجلب الخير والرخاء والصحة والعدالة . على أن هناك مجالا للشك فى أنه كان لهذه الآلهة خارج ايطاليا واليونان ـ موطنهما الأصلى ـ

(١) Boak, A history of Rome to 565 A.D. p. 272.

تأثير كبير أو عزاء روحى لدى الأهلين(٢) فقد كان لدى هؤلاء الأهلين فى الولايات الرومانية ، لا سيما فلاحيها وأهل المدن ، آلهتهم المحلية التى يلقون اليها الاحترام والتقديس ، وكان هذا يبدو بصورة أوضح فى المدن الصغيرة حيث كان يسيطر عليها الطابع الريفى ٠ فعبد المصريون الآلهة التى تحمل رءوس الحيوانات فى حياتها وبعد مماتها ، وامتلأت المعابد الكبيرة بالعديد من الكهنة الحليقى الرءوس فى ملابسهم البيضاء ، يباشرون الطقوس الدينية فى لغة قديمة كانوا هم أنفسهم يفهمونها بصعوبة(٣) ٠ أما فى سوريا وشمال أفريقيا فقد عبد الفلاحون وأهالى المدن البعل وعشتار وغيرهما من الآلهة المحلية(٤) ، وفى تراقيا عبد الناس آلهة الجبال المحاربة ، وكانت الشمس التى لا تقهر تحظى بالنصيب الأكبر فى ايليريا(٥) ، أما عند الكلت فقد انتشرت بينهم عبادة الطبيعة ، وكان الولاء يقدم لآلهة الربيع والأنهار والغابات وعلى رأسها جميعا الشمس(٦) ٠

حقيقة احتلت بعض الآلية الزعامة الرسمية فى البانثيون الرومانى ، وظلت لفترة طويلة تعبد فى العصر الجمهورى ، وخاصة Jupiter Capitolinus رب الأرباب ويقابل زيوس عند الاغريق وما يرتبط به مثل Juno (٧) Minerva و Mars (٨) ٠ غير أن الطبقة المثقفة ورجال السناتو ، والنبلاء ، والعائلات الثرية والعريقة من حكام المدن والذين يكونون الطبقة المثقفة ورجال

---

(٢) Jones, Constantine and the conversion of Europe, p. 29.

(٣) Jones, Constantine, p. 31.

(٤) Id.

(٥) Id.

(٦) Id.

(٧) كانت يونو ملكة السماء وحامية الأنوثة والزواج والأمومة ٠ وكانوا يوصون بالزواج فى شهرها — شهر يونيو — ويقولون ان الزواج فيه أسعد الزيجات ، على حين كانت منيرفا آلهة الحكمة والصناعات اليدوية وطوائف الصناع والممثلين والموسيقيين والكتبة ، أما مارس فقد كان آلها معظما عند الشعب ٠ وكان أولا اله الحرث ثم كاد أن يكون رمز روما وشعارها ٠ وكانت كل قبيلة فى ايطاليا تطلق اسمه على شهر من الشهور ٠
راجع : ديورنت : قصة الحضارة ، المجلد الثالث ، ج ١ ص ١٢٧ ، ١٢٨ ٠

(٨) Boak, op. cit. p. 389.

السناتو والنبلاء ، والعائلات الثرية والعريقة من حكام المدن والذين يكونون الطبقة الأرستقراطية في الولايات ، والتي أشربت منذ الصغر التراث الكلاسيكي اليوناني والروماني ، ربطت مجدهـــا الديني وتراثهـا في الفن والأدب ، وتاريخها بهذه الآلهة ، وان لم يكن هذا في الغالب أكثر من ارتباط عاطفي تاريخي(٩) . وتملكت نفوس هذه الطبقة المثقفة حالة من القلق والشك في مقدرة هذه الأرباب في نهاية العصر الجمهوري الذي شهد بين الرومان حربا أهلية طاحنة دون أن تبدى الآلهة حراكا لوضع حد لهذه الفوضى ، فبـــدأ الايمان لديهم يتزعزع تجاه آلهتهم القديمة ، فولوا وجههم شطر الفلسفة ، التي كانت في هذه الفترة قد توقفت عن أن تصبح موضوعا دراسيا واســع الانتشار ، واضحت أساسا على وفاق مع الدين(١٠) . ووجدت هذه الطبقة الى حد ما سلواها في الرواقية بما تنطوي عليه من أخلاق سامية وايمان بكل الآلهة(١١) . والى جوار هذه كانت توجد أيضـــا الأفلاطونية المحدثة والفيثاغورية الجديدة وكانتا تقومان على نظام ثنوي في الاعتقاد ، وتعتبران المادة شرا ، والجسد سجنا ، والخلاص لا يتأتى الا عن طريق اذلال الجسد والتأمل في طهارة الروح الالهية وممارسة التصوف والزهد .

غير أنه لم يكن في قدرة الدين القديم أو الفلسفة أن تهب العامة ايمانا يخفف عنها شعورها بفقرها ويواسيها في أحزانها . ففي الوقت الذي كان

---

(٩) Jones, Constantine, p. 29.

(١٠) Cary, A history of Rome down to the reign of Constantine, p. 588.

(١١) تقوم الرواقية على جعـل المعـاني الفلسفية في متناول الخلق جميعا ، وعلى فتح باب الفلسفة على مصراعيه ، وهي تقدم للانسان الحائر في مجتمع شاعت فيه الفوضى ودب فيه الانحلال ، أساسا أخلاقيا للسلوك ، ومبدأ راسخا للحياة الفاضلة . ومن ثم فهي من هذه الناحية تعـد عقيدة أخلاقية . انظر ص ١٠ من تصدير الطبعة الثانية لكتاب الفلسفة الرواقية للدكتور عثمان أمين . القاهرة ١٩٧١ . وراجع أيضا تراث العالم القديم تأليف W.G. De Burge وترجمة زكي سوس ج ١ ص ٢٣٤ ــ ٢٤١ . كان من أشهر رجالاتها ابيكتيت Epictetus الذي استطاع أن يضم الامبراطور تراجان (٩٨ ــ ١١٧) الى حلقة ســـامعيه ، وكان الامبراطور ماركوس أوريليوس (١٦١ ــ ١٨٠) من أعلام الفلاسفة الرواقيين . راجع : Cary, op. cit. p. 596.

الناس فى حاجة الى من يخاطب روحهم ووجدانهم ، كان الدين لا يقدم لهم الا طقوسا ومراسم(١٢) · أما الفلسفة فكانت بأفكارها وجدلها لا تتناسب وعقول العامة الذين راحوا يفتشون عن أرباب آخر ، يجدون فى الايمان بها هدوء الخاطر ، وسرعان ما وجدوا هذه الأرباب فى الديانات الشرقية التى استطاعت أن تقدم لمعتنقيها كل ما عجزت العبادات الرسمية للامبراطورية أن تمدهم به(١٣) من الرضى النفسى ، والأمل فى المستقبل والهروب من هذا العالم الملىء بالبؤس والشقاء الذى يحيونه الى عالم الروح وما يعدهم به من نعيم مقيم · وكل ذلك كانت تفتقده العبادات الرسمية التى كانت ذات طابع سياسى صرف وأداة طيعة من أدوات الحكم(١٤) · وقد وجد الناس فى هذه العبادات الشرقية الجديدة عددا من شعائر أثارت نفوسهم وأشبعت عواطفهم · فالعابد بممارسته اياها ، يشعر وكأنه وصل الى درجة الغيبوبة الروحية يحس فيها أنه فى اتحاد مع الاله المعبود · وباتمام شعائر الأسرار يحس أن نفسه قد تطهرت من دنس حياته الأرضية ، وأصبح مستعدا لتقبل حياة روحية نقية(١٥) ·

ومن بين العبادات الشرقية العديدة كان هناك ثلاث منها حظيت باهتمام كبير من جانب الرومان على المستويين الشعبى والرسمى ، هى عبادة الأم العظيمة Magna Mater من Pessinus وموطنها الأصلى فى فريجيا Phrigia بآسيا الصغرى حيث كانت تعرف بالآلهة Cybele وقد أشرك معها فى العبادة قرينها Attis الذى تروى الأساطير المقدسة أن كيبيلى قد أعادته الى الحياة ثانية ــ بعد أن كان قد ذبح ــ بقوة حبها اياه(١٦) · وقد نقل الحجر الأسود الذى كان يمثل صورتها مع كهنتها من الخصيان بكل وقار واحترام من بسينوس الى روما فى الأيام المشئومة للحرب البونية الثانية (٢٠٥ق٠م)(١٧) وذلك بعد أن فشلت أرباب الرومان فى أن تهدىء من روع السكان الذين

---

(١٢) ديورنت ، المصدر السابق ، مجلد ٣ جـ ٢ ص ٢٥٥ ·

(١٣) Stephenson, Mediaeveal history, p. 39.

(١٤) Boak, op. cit. p. 391.

(١٥) Ibid. p. 391.

(١٦) Stephenson, op. cit. p. 39.

(١٧) Boak, op. cit. p. 391.

أصيبا بخيبة الأمل ، غير أن السناتو الرومانى حصر عبادتها فى معبدها على لبلاتين • ولكن ما أن جاء عصر كلوديوس Claudius (٤١ ـ ٥٤) حتى تحطم هـذا الحصـار الذى فرضـه السناتو على « الأم العظيمة البسيّية »(١٨) ، وانتشرت عبادتها سريعا بين سكان روما وايطاليا وكثير من مـن الولايات فى ليديا Lydia وفريجيا وأفريقية(١٩) •

وقد احتلت هذه العبادة مكانة مرموقة بين سـائر العبادات الأخرى القادمة من الشرق نتيجة استحسان ورضى الدولة الرومانية عنها(٢٠) •

أما الآلهة المصرية ايزيس فانهـا عبدت كأم عالمية تحب الخير للنوع الانسانى ، وقد عبد معها قرينها سيرابيس ، ولقيا انتباها خاصا عند كل من التجار والملاحين الذين كانوا يبشرون بهذه العبادة فى كل ميناء من موانى البحر المتوسط يحطون فيه رحالهم(٢١) وقد ساعد على انتشار عبادة ايزيس فى الامبراطورية ما انطوت عليه قصـة هذه الآلهـة من الحنو والرأفة ، وما اختصت به طقوسها من الرقة ، وما كان يسود هياكلها من جـو مرح ، وما تشتمل عليه صلواتها المسائية من ألحان موسيقية مؤثرة ، ولترحيبها الشـامل بالناس جميعا على اختلاف أممهم وطبقاتهم كما أنهـا رحبت بالنساء(٢٢) على عكس عبادة الاله مثرا •

---

(١٨) Dudley, The Civilization of Rome, p. 230.

(١٩) كان كهنتها يخصون أنفسهم كما فعل قرينها أتيس ، ويصـوم عبادها ويصلون ويحزنون لموت أتيس وذلك أثناء الاحتفال بعيدها الربيعى (١٥ ـ ٢٥ مارس) ، حيث كان الكهنة أيضا يجرحون سواعدهم ويشربون دماءهم وفى موكب مهيب يحمل الاله الشاب الى قبره ، فاذا كان اليوم الثانى ضجت الشوارع بأصوات الفرح الصادرة من الأهلين المحتفلين ببعث أتيس • فاذا ما حل اليوم الأخير من أيام الاحتفال حملت صـورة الأم العظيمة فى موكب للنصر ، ويخترق حاملوها صفوف الجماهير التى تحييها وتناديها فى روما باسم « أمنا » Nostra Domina

راجع : Jones, op. cit. p. 35 وأنظر أيضا : Dudley, op. cit. p. 115

وكذلك ديورنت : قصة الحضارة ، مجلد ٣ جـ ٣ ص ١٧٤ •

(٢٠) Jones, op. cit. p. 34.

(٢١) Dudley, op cit. p. 231.

(٢٢) Ibid. p. 230.

وراجع أيضا ديورنت : المصدر السابق ص ١٤٨ •

وقد انتقلت هذه العبادة الى روما فى غضون القرن الثانى قبل الميلاد ان لم يكن قبل ذلك · وتم هذا على يد الاغريق الذين كانوا يفدون على روما من مصر مباشرة أو من المناطق المجاورة لايطاليا كبلاد اليونان وجزر البحر الايجى وصقلية ، وقد انتشرت عبادتها بين العبيد وفقراء الرومان وبعض سيدات الطبقة الأرستقراطية مما دفع السناتو الى تحديها ، كما أصدر أحد قنصلى عام ١٦٨ ق·م أمرا بهدم هياكل ايزيس وسيرابيس القائمة بالمدينة ، غير أن الحكومة الرومانية تركت أتباع ايزيس يمارسون شعائرهم خارج أسوار روما · وفى عهد صلا Sulla اشتد ساعد هذه الديانة مرة أخرى لانتهاجه سياسة التسامح ، ونتيجة لتأثير كليوباترة على يوليوس قيصر ازدهرت عبادة ايزيس خاصة وأنه كان زعيما للحزب الديمقراطى أو الشعبى الذى كان يضم بين صفوفه كثيرين من أفراد الطبقة الدنيا وهى أكثر الطبقات اقبالا على العبادات الأجنبية ، وأحرزت ديانة ايزيس تقدما مطردا حتى أن الحكومة الثلاثية (الثانية) أعترفت بها رسميا فى عام ٤٢ ق·م · وقد تعثرت عبادة ايزيس بعد ذلك نتيجة للحرب الأهلية بين اكتافيانوس Octavianus وماركوس أنطونيوس Marcus Antonius ثم صدر قرار بتحريم عبادتها داخل العاصمة الرومانية سنة ٢٨ ق·م · ثم طوردت فى كل أنحاء ايطاليا على عهد تيبيريوس Tiberius (١٤ ــ ٣٧) م(٢٣) الا أن هذه العبادة حظيت بالاعتراف الرسمى من جانب كاليجولا Caligula (٣٧ ــ ٤١)(٢٤) واستمرت عبادتها فى الازدهار على عهد خلفائه حتى أن أتباعها كانوا يمارسون شعائرهم فوق الكابيتول باطمئنان أثناء الحرب الأهلية سنة ٦٩ ، وبارتقاء الأسرة الفلافية (٧٠ ــ ٩٦) العرش بدأ العصر الذهبى لعبادة ايزيس فى روما(٢٥) ·

وعلى الرغم من أنها حوربت أكثر من مرة على يد الحكام الرومان فى العاصمة ذاتها ، غير أنها كانت سرعان ما تعود الى استعادة مركزها ثانية ، ولكن بمجىء عصر أنطونينوس بيوس Antoninus Pius

---

(٢٣) د· عبد اللطيف أحمد على : مصر والامبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية ، ص ١٤٧ ــ ١٥٠ ·

(٢٤) Dudley, op. cit. p. 230.

(٢٥) د· عبد اللطيف : المصدر السابق ، ص ١٥٠ ــ ١٥٥ ·

(١٣٨ ــ ١٦١) بدأت تفقد مركزها متخلية عنه لعبادة الاله الفارسى مثرا Mithra (٢٦) الذى استقرت عبادته لفترة طويلة فى شرق آسيا الصغرى ثم بدأت تأخذ طريقها الى الغرب فى فترة متأخرة فى القرن الأول الميلادى ، وما أن وافت القرون الأولى من التاريخ الميلادى حتى انتشرت فى جميع انحاء الدولة الرومانية عبادة مثرا ، الاله الشاب ذى الوجه الوسيم الذى تعلوه هالة من نور ترمز الى الوحدة القديمة بينه وبين الشمس(٢٧) ٠

ولقد كانت المثرائية هى العبادة الشرقية التى فاقت قريناتها الزاحفة الى الامبراطورية ، وكان مثرا يبدو فى الديانة الزرادشتية كاله للنور (أهورامزدا) ضد اله الظلمة (أهريمان) ، وحيث تأثر بالمروح البابلية والاغريقية ، عرف مثرا بأنه اله الشمس ، ثم ظهر فى روما على أنه الشمس التى لا تقهر(٢٨) Deus Invictus Sol Mithra ٠ ولما كانت هذه العبادة فى شكلها الزرادشتى تمثل صراعا بين الهى النور والظلمة ، فقد أوجد ذلك فى أفئدة الناس دافعا وتأييدا للجهاد من أجل الصلاح والبر ، وبذلك قدمت العبادة المثرائية حصانة روحية راسخة(٢٩) ٠ ولقد تركت المثرائية آثارها الواضحة فى روما والولايات الغربية(٣٠) وأخذت فى الانتشار السريع خاصة فى الأوساط العسكرية بعد أن أصبح مثرا الها للمعارك الحربية ، وحاميا للجنود الذين غدوا أداة تبشير حماسية له على معسكرات الحدود(٣١) ٠

على أية حال فقد أصبح العالم الرومانى الوثنى يعج بالعقائد المختلفة ، وكانت العبادات الشرقية مادة اضافية جديدة للوثنية الرومانية ، غير أنها لم تصبح لها السيادة ، وعلى الرغم من أن بعضها قد اعترف به رسميا ، ولقى التأييد من جانب بعض الأباطرة ، الا أن هذه العبادات ، بقيت عبادات

---

(٢٦) Cary, op. cit. pp. 589, 697.
(٢٧) Dudley, op. cit. pp. 230-232.
(٢٨) Boak, op. cit. p. 392.
(٢٩) Stephenson, op. cit. p. 40.
(٣٠) Ault, Europe in the Middle Ages. p. 39.
(٣١) Cary, op. cit. p. 698; Dudley, op cit. pp. 230-232.

فردية أو خاصة ، ولم تدع فى يوم من الأيام أن لها صفة سياسية ، وكانت الدولة الرومانيـــة فى نفس الوقت تقف ازاء كل هـــذه الديانات موقف المســـامحة(٣٢) ، شريطـــة الا تتعارض طقوسها مع الصـــالح العـــام الرومانى(٣٣) ٠

غير أن هذه الديانات الجديدة كانت تفتقر الى السلطة المركزية المنظمة المتمثلة فى رجال الكهنوت والتى تستطيع أن تسن قانونا ، أو تضع تنظيما معينا لهذه العبادة أو تلك ، أو تحـــدد الطقوس اللازمة ، وكانت مناصب الكهنوت فى الغالبية العظمى من العبادات المحلية تمـلأ بواسطة أناس من أهل المنطقة ذاتها ، وقد يجمعون بينها وبين الوظائف العامة أحيانا ، وكان معظم الكهنة يختارون بواسطة المجامع المحلية سواء لـمدة سنة مثل معظم الوظائف الأخرى فى الامبراطورية ، أو على الدوام كمنصب شرفى(٣٤) ٠

ولأجيال عديدة ، فان الديانات ذات الأصـل الشرقى كعبادة ايزيس والام العظيمة ومثرا قد أشبعت الى حد ليس باليسير الشعور الدينى عند الرومان ، والذى لم يكن يجـد الا غـــذاء يسيرا فى الديانة الرومانيـــة القديمة(٣٥) ٠ وكان الغموض والأسرار الخفية فى هذه العبادات ذات أثر فى اجتذاب عدد كبير من المتعلمين والأميين على السواء الى رواقها(٣٦) ، ولا يمكن القول أن الدين أو الفلسفة لم تعط نوعا من التعاليم الأخلاقية ٠ فهذه الأخيرة ــ الفلسفة ــ كانت تنادى بوجوب تخلص الروح وتطهرها من الشهوة الجسدية والماديات ، وذلك بممارسة الفضيلة من أجل الحصول على الطهارة والنقـــاوة اللازمة للتأمل والتفكر فى الله ٠ وكان قانون العقيدة المثرائية ــ كما أوضحنا ــ يقسـم العـالم قسمين ، ويجعل الصراع قائما بينهما ، بين قوة النور وقوة الظلمة ، ومن ثم كان على المؤمنين بمثرا أن يحاربوا فى صفه حتى يستطيعوا لاتحاد به ، كما كانت الطهارة والعفـــة

---

(٣٢) Boak, op. cit. p. 302.

(٣٣) Jones, op. cit. p. 30.

(٣٤) Ibid. 46.

(٣٥) Dill, Rome and Society in the last century of the Western Empire, p. 7.

(٣٦) Stephenson, op. cit. p. 39.

الأخلاقية فى عبادة ايزيس مطلوبة من عبادها اذا كانوا يريدون الحصــول على السماح والغفران عند القضاء بعد الموت ، ونيــل البركات والنعيم المقيم · غير أن هذه المسائل كلها كانت تتم بصــــورة فردية ، ولم يحاول أحدهما أو كلاهما ـ الدين والفلسفة ـ أن يبدى اهتماما بالعدالة الاجتماعية ، كما أنه لم يكن عند هذه أو ذاك مجرد الرغبة فى انقاذ العالم كوحدة واحدة ، وخلاصه من شروره(٣٧) ·

وكان يحمل هذا المبدأ الأخير ديانة شرقية جديدة تمثلت فى المسيحية ، تبدت عقيدتها فى اله مخلص سار فى طريق الآلام والتعذيب ليكفر عن خطايا البشر · مات ثم قام ثانية من بين الأموات · وكان لهذه العقيدة المسيحية الجديدة أسرارها الخفية ، وغموضها الذى كانت تشترك به مع العبـــادات الشرقية كلها آنذاك ·

فاقت المسيحية سائر الديانات الشرقية القديمة لأن يســـوع المسيح كانت له جاذبية أحدثت فى النفوس راحة ، فهو قد نال الموت من أجل خلاص الناس أجمعين ، وتفردت بتعاليم أخلاقيـــة قابلت الهوى · وعلى خــلاف المثرائية التى قصرت عضويتها اقامة شعائرها على الرجال دون النساء(٣٨)، وعبادتى الحنان الأنثوى كيبيلى وايزيس ، ملكت المسيحية على الجمـــوع الأفئـــدة ·

ولكن المسيحية لم تلق من الرواج بادىء الأمر ما لقيته هذه الديانات الأخرى · وعلى الرغم من القوة الروحية التى كانت تؤكد مستقبل الايمان المسيحى ، الا أن انتصار المسيحية جاء متأخرا جدا ، وكان على المسيحية أن تقضى طيلة ثلاثة قرون كاملة تتلظى بنيران عداوات الأديان الأخرى ، وسياط الاضطهاد حتى تتخطى العقبات التى صادفتها ، وعلى طريق طويل بلغ مداه ثلاثمائة عام سار المسيح وحواريوه وأتباعه رحلة طويلة مليئـــة بالآلام والتعذيب حتى استطاعت المسيحية أن تحقق نصرا جزئيا فى مطلع القرن الرابع ، ولم يتحقق لها النصر النهائى الا وشمس القرن ذاته تؤذن بالمغيب ·

---

(٣٧) Jones, op cit. p. 38.

(٣٨) Ault. op. cit. p. 40.

وقد جاء العداء للمسيحية فى هذه القرون الثلاثة الباكرة من جانب اليهود والوثنيين · فقد كانت اليهودية فى هذه الفترة قد أخذت فى الانتشار الواسع خاصة فى حوض البحر المتوسط الشرقى خلال الشتات الذى تعرض له اليهود ابان العصر الهلنستى(٣٩) · ذلك أن غزو الاسكندر الأكبر للشرق الأدنى كان داعية لفتح العالم الاغريقى المقدونى كله أمام اليهود ، فاحتلوا مراكز التجارة الهامة فيه ، وسادوا طرق المواصلات التجارية ، ولقيت المستعمرات التى أقامها اليهود التشجيع من جانب الملكيات الهلنستية التى أعفتهم من الخدمة العسكرية ، ومنحتهم الحماية والأمان على معتقداتهم وأنعمت عليهم بامتيازات قضائية معينة فى تلك المدن التى أقاموا فيها ، وبذلك أصبح عدد يهود الشتات أكثر من أولئك الذين يقيمون فى اليهودية Judaea (٤٠) · وكانت ثورة المكابيين السياسية ضد السلوقيين سببا فى اعادة احياء هذه الديانة ، ومدعاة لنشاط تبشيرى بين جماعات الوثنيين، واستطاعت اليهودية أن تجتذب اليها فى القرن الأول للميلاد عددا لا بأس به من الوثنيين(٤١) ، وعلى الرغم من أن اليهود المقيمين خارج سوريا قد تشربوا الثقافة الهلنستية بصورة أو بأخرى ، واستسلم اليهود المقيمون فيها شيئا فشيئا لما كان فى هذه المنطقة من نزعة هلنستية ، الا أنهم ظلوا يكونون شكلا من الوحدة الدينية يترأسه الكاهن الأكبر فى أورشليم ، وتجلى ذلك فى بعض المظاهر ، فبالاضافة الى الضريبة السنوية التى كان مقدارها دراخمتين ، والتى كان على اليهودى أن يدفعها لمعبد يهوه ، كان ينتظر من كل يهودى أن يحج الى أورشليم وأن يقدم فى معبدها أضحية معينة ولو مرة واحدة على الأقل طوال عمره · ومع ذلك فقد كان اتصالهم بجودايا دينيا محضا ولم يكن ذا صبغة سياسية(٤٢) ·

وفى سنة ٦٣ ق·م· أصبحت اليهودية جزءا من ولاية سوريا الرومانية، بعد أن انتصر بمبى لهركان الثانى ضد أخيه ، واستطاع أن يفتح العاصمة المقدسة بعد حصار دام ثلاثة أشهر · وحفظت روما لليهود موقفهم ازاءها

---

(٣٩) Cary, op. cit. p. 589.
(٤٠) Boak, op. cit. p. 394.
(٤١) Cary, op. cit. p. 589.
(٤٢) Boak, op. cit. p. 394.

أثناء عدائها الباكر مع دولة السلوقيين ونتيجة لموقفهم أيضا أثناء النزاع بين أكتافيانوس من ناحية وأنطونيوس وكليوباترة من ناحية أخرى وتخليهم عن نصرة آخر حكام البطالمة(٤٣) . فاعترفت لهم بامتيازاتهم التى كانوا قد حصلوا عليها من المدن الهلنستية ، هذا بالاضافة الى أنه لم يطلب اليهم أن يشاركوا فى العبادة الامبراطورية . واتبعت الحكومة حيالهم سياسة من التسمح ، ولعل الذى دفع الحكومة الرومانية الى أن تسلك هذا السلوك من التسمح تجاه اليهود هو ما كانت تشعر به من اتجاهات ايجابية فى العقيدة اليهودية ذاتها(٤٤) . أو لعله أيضا يرجع الى أنهم كانوا رغم انفراد ديانتهم بقوانينها الخاصة يعدون مجتمعا ليس بذى شعبية كبيرة بحيث يمثل خطرا على الامبراطورية الرومانية(٤٥) .

فلما جاء كاليجولا الى العرش أراد أن يجعل عبادة الامبراطور دينا يوحد به أجزاء الامبراطورية المختلفة ، فأمر أن يقدم أتباع كل العبادات قربانا لصورته ، وأصدر تعليماته الى الموظفين فى أورشليم أن يضعوا تمثالا فى الهيكل(٤٦) . ولكن اليهود كانوا ينفرون من وضع تمثال منحوت لرجل وثنى فى هيكلهم ، وان كانوا قد قطعوا نصف الطريق الى ترضية الأباطرة بقبولهم أن يضحوا ليهوه باسم الامبراطور ، وقد أنهى كاليجولا المشكلة بموته(٤٧) .

وفى ستينيات القرن الأول الميلادى ثار اليهود فى جودايا ثورة عارمة ، غير ان جيوش الامبراطورية بقيادة تيطس Titus استطاعت أن تقضى على هذا التمرد ، وأن تدمر الهيكل ، وأن تذبح أعدادا كبيرة منهم ، وفرض الامبراطور فسباسيان Vespasianus (٦٩ ـ ٧٩) على كل يهودى أن يحول الضريبة التى كان يدفعها للهيكل فى أورشليم الى

---

(٤٣) د. مصطفى عبد العليم : اليهود فى مصر فى عصرى البطالمة والرومان ، ص ٥١ .

(٤٤) Boak, op. cit. p. 394.

(٤٥) Stephenson, op. cit. p. 43.

(٤٦) Dudley, op. cit. p. 162.

(٤٧) ديورنت : المصدر السابق ، مجلد ٣ جـ ٣ ص ١٨٥ .

الهيكل الوثنى فى روما(٤٨) · غير أن اليهود ما لبثوا أن جددوا ثورتهم ضد روما مرة أخرى فى عامى ١١٥ ــ ١١٦ ، وشملت الثورة هذه المرة مناطق عدة من الامبراطورية خاصة فى برقة ومصر وقبرص وأرض الجزيرة(٤٩) · ولكن الامبراطور هادريان Hadrianus أخمد بلا هوادة هذا التمرد الخطير ، وأصدر فى سنة ١٣١ مرسوما يحرم الختان أو الاحتفال بأى عيد من أعياد اليهود أو اقامة أى طقس من الطقوس اليهودية علانية ، وفرضت ضريبة شخصية جديدة وباهظة ، وحرم عليهم دخول بيت المقدس الا فى يوم واحد فى العام ليسمح لهم فيه بالمجىء للبكاء أمام خرائب الهيكل ·

وهكذا شتت اليهود فى كل ولايات الامبراطورية الرومانية ، وضربت عليهم الذلة والمسكنة أينما ثقفوا ، وكان مما يقلق بال اليهود أن يدفعوا ضريبة لسيد وثنى(٥٠)، ونظر اليهود الى ماضيهم فألفوا أنفسهم وقد تعرضوا لتاريخ طويل من الاذلال والشتات ، بدأ بالآشوريين فالبابليين فالفرس فالاغريق ثم فى النهاية الرومان ، ومن ثم تولد لدى اليهود كبير أمل ، وتوقع محدد صريح أن الههم لابد وأن يخلصهم يوما ما من هذه التبعية السياسية للسيد الأجنبى(٥١) · وكان التفكير السائد ــ حسبما جاء فى نبوءات أنبياء بنى اسرائيل(٥٢) ــ أن الوسيلة الوحيدة لذلك هو أن يرسل يهوه مسيحا خصيصا لهذا الغرض ، يخرجهم من الظلمات الى النور ــ المادى الحسى ــ ويعيد لهم على الأرض مملكة داود وسليمان ، ويحقق لهم عهدا جديدا من

---

(٤٨)

(٤٩) EVSEB. Hist. eccl. IV. 2.

(٥٠) Gibbon, The decline and fall of the Roman Empire, I, p. 78.

(٥١) Thompson & Johnson, An introduction to Medieval Europe, p. 27.

راجع أيضا : Stephenson, op. cit. p. 40.

(٥٢) جاء فى سفر اشعياء (٩/٦ ــ ٧) لأنه يولد لنا ولد ، ونعطى ابنا ، وتكون الرياسة ، ويدعى اسمه عجيبا مشيرا الها قديرا أبا أبديا ، رئيس السلام ، لنمو رياسته وللسلام لا نهاية على كرسى داود وعلى مملكته ليثبتها ويعضدها بالحق والبر من الآن الى الأبد » ·

وجاء أيضا فى نفس السفر (١١/١ ــ ٢) « ويخرج قضيب من جذع يسى ، وينبت غصن من أصوله ويحل عليه روح الرب » ·

السلام والرخاء ، من القوة والعظمة ، وينهى بقوته والى الأبد حالات الحزن والقنوط والتبعية والاذلال ، وأن يهوه لابد وأن يعيد الى شعبه ميراثه الصحيح ووضعه المرموق(٥٣) ٠

غير أن اليهود أصيبوا بخيبة أمل بالغة عندما جاءهم المسيح يزين لهم ملكوت السماوات ٠ويعدهم وعدا حسنا فى الدار الآخرة ،وأدرك رجال السطوة والنفوذ فيهم من الصدوقيين والفريسيين والكتبة ومختلف الطوائف الأخرى، وأعضاء مجلس السنهدرين اليهودى(٥٤) أن مكانتهم الى نهاية ، وأن نفوذهم لا محالة ضائع ٠ ومن ثم كفروا بالمسيح وبما جاءهم به ، ونالوا منه ومن دعوته وأتباعه ، وراحوا يؤلبون عليه وعليهم جميعا شعب الرومان والحكومة ٠ وبذلك لقى المسيحيون من اليهود كبير عنت ٠

أما المجتمع الرومانى فكانت نظرته الى المسيحية تختلف باختلاف الطبقة التى ينتمى اليها هذا البعض أو ذاك ، هذا بالاضافة الى موقف السلطات ذاتها ، فالطبقة المترفة كانت تعتقد أن المسيحية تهدد كيانها بما تحمله من تعاليم تدعو الى المساواة والأخذ بيد الفقراء ، والتصدق بالأموال وعدم اكتنازها ، واحتقار الحياة الدنيا وملذاتها(٥٥) ، وهى مظاهر لم يألفها الرومان فى تلك الأعصر ٠ ومن ثم أتهمت هذه الطبقة المسيحية بأنها تعمل على تبديد الثروات التى جمعوها بطرق مشروعة أو غيرها ، وراحوا ينظرون

---

(٥٣) دانيال ٢/٤٤ ٠ أشعياء ٢/٤ ٠

(٥٤) هو المجلس الأعظم المكون من كبراء اسرائيل ، ويظن أنه نشأ فى أثناء حكم السلوقيين (حوالى عام ٢٠٠ ق٠م٠) ٠ وكان الحاخام الأعظم هو الذى يختار فى بادىء الأمر أعضاء المجلس من بين طبقة الأشراف الكهنوت ، ويضم المجلس واحدا وسبعين عضوا يدعون لأنفسهم السلطة العليا على جميع اليهود أيا كان موطنهم ، وكان اليهود المستمسكون بدينهم فى كل مكان يعترفون لهم بهذه السلطة ٠

(٥٥) حفل العهد الجديد بالآيات العديدة الدالة على ذلك ، « لا تكنزوا لكم كنوزا على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ وحيث ينقب السارقون ويسرقون » (متى ٦/١٥) ، « ان اردت أن تكون كاملا فاذهب وبع أملاكك وأعط الفقراء » (متى ١٩/٢١ ، مرقس ١٠/٢١) ، « مرور جمل من ثقب ابرة أيسر من أن يدخل غنى الى ملكوت الله » (مرقس ١٠/٢٥) ٠

اليها بعين الشك والارتياب · أما الطبقة العليا وخاصة أولئك الذين وضعوا فى مناصب تتطلب منهم الحفاظ على أمن الدولة وسلامتها ، والذين يرتبطون بالأسلاف بصورة حقيقية أو خيالية ، والذين كانوا يرون أن ديانتهم الوثنية جزء من كيان الحكومة ونظامها ، واعتادوا أن يربطوا بين أربابهم وبين مجد الدولة وعظمتها ، فقد كان من الصعب عليهم هجران ديانتهم وعقائدهم بعد ما رأوا أن المسيحى ينظر الى دينه على أنه شيء منفصـــل عن المجتمع السياسى ، وأنه أسمى من هذا المجتمع مقاما ولا يدين بولاء للقيصر ولكن بأعظمه للمسيح(٥٦) ·

ولم تكن الجموع الرومانية فى حاجة الى من يثير عاطفتها ضد هـذه الدعوة الجديدة وأتباعها ، وكان الذى أدى الى هذا الاتجاه هو ذلك الموقف الخـاص النابع من المسيحية · ففى الوقت الذى لم يكن لدى روما فيه أى تعصب فى الوصول الى اتفاق معين أن تراض مع العبادات الأجنبية الأخرى· وكان مذهب تعدد الآلهة على استعداد لأن يقبل فى البانثيون الرومانى آلهة جددا ، وتجلى ذلك فى أن آلهة الشرق كانت تقام لها الاحتفالات والأعيـاد كما لو كانت أى اله رومانى ، وبينما كان الوجدان الوثنى لا يرضى طواعية باله واحد ، بدأت المسيحية ديانة توحيدية ، وكان هنـــاك فى الحقيقة اله واحد · وقد أظهر هذا الاله نفسه فى « العهد القديم » غير متسامح البتـة مع الآلهة الأخرى ، ولم تكن المسيحية التوحيدية ترضى بحل وسـط يمكن استخدامه مع الوثنية المتعددة الآلهة فى الامبراطورية الرومانية ، بل يجب فى ـ نظرها ـ الا يكون هنـــاك تســـامح مطلقا لا مع الوثنيـــة ولا مـع اتباعها(٥٧) ·

وبنـــاء على هـــذا المعتقد لدى المسيحيين ، عزل هؤلاء أنفسهم عن المجتمع الرومانى وأنشطته المختلفة ، فلا هم يشتركون فى حفلاته وندواته العامة ، ولا هم يختلطون بالرومان ويندمجون فيهم ، بل اغلقوا على أنفسهم باب العزلة فى ظل التعاليم التى اشاعها آباء المسيحية الأول من فســـاد

---

(٥٦) Dill, op. cit. p. 3.

(٥٧) Latourette, expansion of Christianity. I, p. 128; Thompson, op. cit. p. 25.

الحياة الدنيا وغوايتها ووجوب الزهد ، وأن من اتبع هواه وأطلق لنفسه وشهواته العنان فى هذه الدنيا فقد ضل وغوى ، وأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى وسار فى طريق المسيح وتحمل الآلام والتعذيب ، واحتقر الحياة الدنيا ، فسوف يلقى جزاء الحسنى بأن يكون رفيق المسيح فى السماوات العلا . ولقد كانت هذه المحاولة لاقامة مجتمع من الاخيار بين الأخوة ، والدفاع العنيف عن حياة التبتل ، تجرى فى تيار مخالف تماما لما كانت عليه الحال فى تلك الفترة(٥٨) . ولما كان زعماء المسيحيين يحضونهم على أن يتجنبوا غير المسيحيين ، وأن يبتعدوا عن الألعاب الهمجية التى يقيمونها فى أعيادهم والا يغشوا دور تمثيلهم لأنها مباءة فجور ، فقد بدا اعتزال المسيحى للشئون الدنيوية فى نظر الوثنى وكأنه هروب من الواجبات المدنية وضعف للروح القومى والارادة القومية(٥٩) . وقد جاء هذا الاعتزال أيضا نتيجة لما كان يعتنقه المسيحيون من أن الحياة الأرضية أضحت غير ذات بال ، والمسيحيون فيها غرباء ، فموطنهم الأصلى هو السماء ، انهم مواطنون فى مملكة الله الآتية(٦٠) . وكانت الكنيسة الأولى تعتقد باخلاص فى قرب مجىء ملكوت السماوات ، ومن ثم لم تقدم شيئا لهذا العالم الذى تعيش فيه ، بل ركزت كل جهدها للاستعداد للحياة الآخرة(٦١) . ولما كان قد حرم على المسيحى أن يتزوج بغير مسيحية ، وعلى المسيحية أن تقترن بغير مسيحى ، اتهم الوثنيون المسيحيون بأنهم بذلك يبذرون الشقاق فى المجتمع ، واتهم الدين المسيحى بأنه يعمل على تشتيت الأسر وخراب البيوت(٦٢) ، ومما أكد هذا الاتهام أيضا أن حماس المسيحيين فى تلك الآونة كان يدفع الواحد منهم ، تبعا للتعاليم المسيحية الى أن يهجر عائلته وأرضه فى سبيل ايمانه ،وأن يشترك فى وحدة مع جماعته المسيحية الجديدة(٦٣) . واتهم المسيحيون بالتعالى والتكبر على بقية أفراد المجتمع لأنهم كانوا

---

(٥٨) Boak, op. cit. p. 395.

(٥٩) ديورنت : المصدر السابق ، مجلد ٣ جـ ٣ ص ٣٧٢ .

(٦٠) Latourette, expansion of Christianity. I, p. 128; Thompson, op. cit. p. 395.

(٦١) Boak, op. cit. p. 395.

(٦٢) ديورنت : المصدر السابق ص ٣٧٢ .

(٦٣) Gibbon, op. cit. I. p. 84.

يضعون الصعوبات فى وجه تناول الطعام خارج دورهم ، حيث أن معظم اللحوم فى الحوانيت مضحى بها أصلا للأوثان(٦٤) ٠ وكان اظهار الشماتة من جانب المسيحيين اذا ما حل بالامبراطورية مكروه ، وما أذاعوه من تنبؤات صريحة عن الكوارث والمحن التى تنتظر الامبراطورية ، كل ذلك أوحى الى الوثنيين بانطباع معين عن خطر متوقع من وراء هذه الطائفة(٦٥) ٠

وبهذا السلوك أدرك جموع الرومان أنهم ازاء جماعة منعزلة تأبى الاشتراك فى الحياة العامة بل وتزدريها وترفض الانخراط فيها ، ولا تؤدى أى خدمة للمجتمع الذى فيه تعيش ، ومن ثم كان سخط الجموع الوثنية ومعارضتها للدين الجديد أشد من سخط الأباطرة أنفسهم فى بادىء الأمر(٦٦) ٠

ولم يكن ارتياب الأباطرة الرومان فى المسيحية بأقل منه عند هذه الفئة أو تلك ، بل أخذ يزداد بمرور الزمن حدة وصرامة ، وكانت المشكلة الجوهرية التى أقلقت بال الأباطرة ، وزادت من حدة النزاع بينهم وبين المسيحيين هى رفض مشاركة هؤلاء بقية الرومان عبادة الامبراطور وتأليهه(٦٧) ، وتقديم القرابين لتمثاله وحرق البخور أمامه فى المناسبات العامة ، وكان احراق البخور أمام تمثال الامبراطور قد أصبح رمزا للولاء للامبراطورية وتوكيدا لهذا الولاء ٠

وترجع بدعة عبادة الامبراطور الى ذلك الزمن الذى حاول فيه أوغسطس أن يوجد رابطة جديدة من الولاء لروما عند أهالى الولايات وذلك باللعب على أحاسيسهم الدينية(٦٨) أو حتى قبل ذلك بزمن طويل عندما بدأت روما تطيح بسلطة الحكومات الهلنستية التى كانت عبادة أفرادها من جانب رعاياهم الأساس الذى قام عليه الحكم الأوتوقراطى لتلك الحكومات(٦٩) ٠ فالمواطنون الهلنستيون منذ دخل الرومان بلادهم غازين ـ عبروا عن

---

(٦٤) Jones, Constantine, p. 41.
(٦٥) Gibbon, op. cit. I. p. 84.
(٦٦) ديورنت : المصدر السابق ص ٣٧٢ ٠
(٦٧) Ault, op. cit. p. 43.
(٦٨) Cary, op. cit. p. 510.
(٦٩) Boak, op. cit. p. 273.

احترامهم أو خوفهم لروما بأن أقاموا هنا وهناك مذابح للآلهة « روما » أو للقواد الرومان(٧٠) . وكان قد حظى بهذه العبادة أيضا أفراد رومان مثل صلا Sulla ، وقيصر Caesar وماركوس انطونيوس(٧١) ، وفى سنة ٢٩ ق م. ، شيدت مدن برجام Pergamum فى آسيا الصغرى ونيقوميديا فى بيثينيا معابد كرستها لعبادة روما وأوغسطس(٧٢) ، وقد قبل أوغسطس الهدية ووافق على وجود هذه العبادة فى مناطق أخرى من الولايات الشرقية(٧٣) ، وقد ظهرت فى الغرب هذه العبادة الامبراطورية الآتية من الشرق ، ففى سنة ١٢ ق.م. دشن دروزس Drusus ربيب أوغسطس مذبحا لروما وأوغسطس فى Lugdunum (٧٤) (ليون الحالية) ، وأقيم آخر فى كولونى Cologne ، وقبل موت أوغسطس كان لدى كل ولاية فى الشرق على الأقل مذبح أو معبد كرس لروما وأوغسطس ، وقد ارتضى الامبراطور كل ذلك وشجعه حيث وجد فيه مصدرا يحقق الاحترام السياسى والولاء الامبراطورى(٧٥) .

وعلى الرغم من أن الامبراطور قد أعطى تأييده لعبادة روما وأوغسطس فى مختلف الولايات الشرقية ، وبداها فى غالة وجرمانيا ، لم ينتظر أهالى ايطاليا موته حتى يعبدوه ، فسرعان ما شيدت المعابد باسمه فى غالبية المدن ، وقد سمح الامبراطور ـ على مضض ـ بعبادته فى روما وقصر ذلك على المعدمين فقط(٧٦) . ولم يكن أوغسطس يرحب بهذه العبادة فى روما وايطاليا لأنه سيبدو بذلك فى نظر الشعب الرومانى ناكرا كونه زعيما رومانيا ، يستمد سلطته من الشعب الرومانى وبذلك سوف يطبع حكومته بطابع الموناركية الأوتوقراطية ، وكان هو غير راغب فى ذلك(٧٧) .

---

(٧٠) Cary, op. cit. p. 510.

(٧١) Boak, op. cit. p. 273.

(٧٢) Id.

(٧٣) Cary, op. cit. p. 510.

(٧٤) Id.

(٧٥) انظر : تراث العالم القديم ، جـ ١ ص ٣٠٠ ـ ٣٠١ وأيضا :
Boak, op. ci. p. 273.

(٧٦) Cary, op. cit. p. 516.

(٧٧) Boak, op. cit. p. 273.

وهكذا كانت العبادة الامبراطورية فى الولايات دليلا على السلطة الكاملة لروما وأوغسطس على رعايا الامبراطورية(٧٨) ، وتجمعت الولايات الرومانية كلها حول عبادة واحدة ، ولم تكن المدن الهلنستية فقط - حيث كانت عبادة الملك شيئا ثابتا - بل حتى فى جرمانيا وغالة أصبح الجميع مقودين لقبول رئاسة كاهن أعلى(٧٩) .

ولقد شاعت عبادة الأوغسطس بعد موته ، وخاصة ذلك الذى يؤلهة السناتو ، ولعبت العبادة الامبراطورية بذلك دورا بارزا فى ايجاد الأوتوقراطية ، وأصبح ينظر الى السلطة الامبراطورية باعتبارها مستمدة من قبل الآلهة ، وأضحى كل حاكم يمارس هذه السلطة على كونها موكلة من الأرباب ، وصدرت العملة فى نهاية القرن الثانى وأوائل القرن الثالث تشير الى الترابط التام بين الحكام « كعبادة أرضية » وبين من فوقهم من الأرباب(٨٠) .

غير أن الحماس الذى واكب أول امبراطور فى هذه العبادة كان مقضيا عليه بالفتور بعد أن استقرت الأمور فى الامبراطورية ، فمن بين خلفاء أوغسطس لم يكن سوى كاليجولا الذى حاول بالقوة فرض العبادة الامبراطورية على رعيته ، ونيرون الذى طالب السناتو بأن يقرر عبادة رسمية فى روما لكلوديوس Divus Claudius (٨١) الذى كان قد سخر هو نفسه من محاولة تأليهه ، أما تيبيريوس Tbierius فقد رفض كل محاولة ترمى الى تأليهه(٨٢) .

وعلى الرغم من أن عبادة الأباطرة - أحياء وأمواتا - كانت من الناحية الدينية أقل اقناعا حيث لم يكن هناك من يعتقد أن الأباطرة كانوا آلهة ، فان أحدا لم يصل لهم فى سقمه أو فاقته ، الا أن عبادتهم كانت رمزا

---

(٧٨) انظر : تراث العالم القديم ، جـ ١ ص ٣٠١ ، وأيضا : سباين : تطور الفكر السياسى ، جـ ٢ ص ٢٧٠ .

(٧٩) Cary, op. cit. p. 511.

(٨٠) Boak, op. cit. p. 390.

(٨١) Cary, op. cit. p. 599.

(٨٢) ديورنت : المصدر السابق ، مجلد ٣ جـ ٢ ص ١٢٤ ، ١٠٠

تقليـــديا كدليـــل على الاحترام لرأس الدولة(٨٣) ودليـــلا على الولاء للامبرطورية · وكان الرومان ينظرون الى عبادة آلهة الدولة بما فيها العبادة الامبرطورية من وجهة نظر سياسية ، معتبرين رفض الاشتراك فى هـــذه العبادة خيانة ضد الدولة تقابلها عقوبة الاعدام(٨٤) ·

لقد آلم الأباطرة كثيرا أن يجدوا المسيحيين لا يشتركون فى تقديس ذواتهم ، وكانت المسألة بالنسبة للمسيحيين غاية فى الأهمية لانها تتصـل بجوهر العقيدة المسيحية ذاتها ، وكانوا يشعرون أنهم بعبادتهم آلهة الدولة ، واعترافهم بألوهية الحاكم سوف يخرجون عن هذه العقيدة التوحيدية الى صفوف الوثنيين ، وكانت الكنيسة ترى فى عبـــادة الامبراطور ضربا من الشرك بعبادة الأصنام ، وبذلك أمرت أتباعها أن يرفضوا هذه الشعائر مهما تعرضوا له من الاذى بسبب هذا الرفض(٨٥) · لقد كان ولاء المسيحيين لدينهم فوق ولائهم للدولة(٨٦) ·

كان فى وسع المسيحيين أن يصلوا من أجـــل الامبراطور ولكن ليس للامبراطور(٨٧) ، وأن يدعوا للامبراطورية وأن أبوا أن يحاربوا من أجلها . ذلك أن المسيحيين فى بادىء الأمر كانوا يرفضون الاشتراك فى الخـــدمة العسكرية للدفاع عن الامبراطورية(٨٨) ، فهم بأدائهم العمـــل العسكرى ينخرطون فى العبادة الوثنية ، وباعتبارهم جنـــود الرب فانهم لم يكونوا

---

(٨٣) Jones, Constantine. p. 30.

(٨٤) انظر : تراث العالم القديم ، ج ١ ص ٣٠٠ وأيضا Thompson, op. cit. p. 30.

(٨٥) يجب أن ندخـــل فى اعتبارنا أن احترام الســـلطة السياسية القائمة . أمر فرضته التعاليم المسيحية منـذ البداية ، يدل على ذلك قـول المسيح « اعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله » (متى ٢٢/٢١) وما جاء فى رسالة القديس بولس الى أهل روما « لتخضع كل نفس للسلاطين الفائقـة · لأنه ليس سلطان الا من الله ··· حتى ان من يقاوم السلطان يقاوم ترتيب الله » (١٣/١ ـ ٢) ·

(٨٦) Davis, A history of Medieval Europe. pp. 11-12.
وانظر أيضا : سباين : تطور الفكر السياسى ، ج ٢ ص ٢٦٧

(٨٧) Boak, op. cit. p. 396.

(٨٨) Painter, A history of the Middle Ages, p. 13.

يستطيعون اعطاء ولائهم لقوة أخرى كانوا فى كثير من الأحيان يساوونها مع الشيطان(٨٩) ٠ فالمسيحى كان يدين بالولاء للمسيح لا لقيصر ، ويعظم أسقفه أكثر مما يعظم الحاكم الرومانى ، ويعرض ما يقع بينه وبين زملائه المسيحيين من مشاكل قانونية على رؤساء الكنيسة لا على موظفى الدولة(٩٠) ٠

فاذا أضفنا الى احتقار المسيحيين لآلهة الدولة ، ورفضهم عبادة الامبراطور ، وامتناعهم عن الاشتراك فى لخدمة العسكرية ، اذا أضفنا الى ذلك كله رفض أثريائهم قبول تولى المناصب العامة فى الدولة(٩١) مما عد تهربا من تحمل مسئوليات المجتمع الذى يحتويهم ، أدركنا الى أى حد كان الأباطرة ينظرون الى هذه الطائفة بعين ملؤها الشك والارتياب ٠

ونتيجة لهذه النظرة التى أحيط بها المسيحيون من أعين معظم طبقات المجتمع ، راح المسيحيون يلتقون خفية ، ويعقدون اجتماعاتهم فى سرية ، مما زاد الطين بلة ، وأوقع بهم تحت دعوى الاتهام بأنهم جماعة سياسية خطيرة يخشى بأسها عى سلامة الدولة(٩٢) ، خاصة وان قيام هيئة دينية تجمعهم منفصلة عن الدولة كان يعد شيئا غريبا تماما عن الفكر الرومانى عندئذ ٠ فتبعا للنظم التى كانت سائدة فى العصرين الجمهورى والامبراطورى، كانت مجموعة واحدة من الحكام أو الموظفين تختص بالشئون المدنية والعسكرية والدينية على السواء ، وما دام المواطن الرومانى يخضع للعبادات الرسمية للدولة ، فقد كان له مطلق الحرية بعد ذلك أن يعتنق ما يريد ، ومن ثم لم يكن يسمح للمواطنين باتخاذ عقيدة تتصارع مع السلام الرومانى والنظام العام(٩٣) ٠

وكان من المستحيل أن تلتقى هذه الفكرة مع عقيدة الكنيسة التى كانت

---

(٨٩) Jones, Constantine, p. 41.

(٩٠) ديورنت : المصدر السابق ، مجلد ٣ جـ ٣ ص ٣٧٢

(٩١) Thompson & Johnson, op. cit. p. 30; Schaff, History of the Christian Church, II. p. 43.

(٩٢) Gibbon. op. cit. I. p. 83; Painter, op. cit. p. 13.

(٩٣) Stephenson, op. cit. p. 43.

ترفض من ناحيتها الفكرة الرومانية القائلة بأن الدين خاضع للدولة · وكان من المستحيل بالتالى على الأباطرة أن يقبلوا بوجود دولة داخل الدولة ·

هكذا توجس الأباطرة خيفة من هذه العقيدة وأتباعها ، ألا أنه يجب أن ندخل فى اعتبارنا عند الحديث عن موقف الاباطرة الرومان من المسيحية أن وقتاً طويلا قد انقضى قبل أن يجـذب المسيحيون ــ كطائفة جديدة ــ نظر السلطة الامبراطورية(٩٤) ، ذلك أن الحكومة الرومانية ظلت لفترة ما تنظر الى المسيحيين باعتبارهم طائفة من اليهود(٩٥) ، ومن ثم استفاد المسيحيون من اتجاه روما نحوهم(٩٦) · ذلك أن اليهود وقد كانوا جماعة تمارس العبادة التقليدية لاسلافهم ، حصلوا منذ زمن مبكر على اعتراف رسـمى لهـذه الطقوس الخاصة ، ونتيجة للاحترام العظيم لعادات وتقاليد الأسلاف ، فقد تسامح الرومان مع اليهود ، بل ومنحوهم بعض الامتيازات(٩٧) ، غير أنه فى نهاية القرن الأول وعلى وجه الخصوص بعد تدمير أورشليم سنة ٧٠ أصبح السبيل ممهدا لسيادة العناصر غير اليهودية بين الطبقات المسيحية ، بعد أن أخذت العقيدة الجديدة تنتشر بين الوثنيين ، وأضـحى من المستحيل أن تتعايش الطائفتان اليهودية والمسيحية طويلا سويا بعد ذلك(٩٨) · ومن ثم رأى المسيحيون أن يتحرروا من المبـادىء اليهودية وليؤكدوا هذه الحقيقة فانهم خصوا بالتعظيم أول أيام أسبوع اليهود بدلا من سـبتهم ، كما أن المسيحيين كانوا على خـلاف اليهود وتمشيا مـع عقيدتهم فى التوحيـد لا يتسامحون اطلاقا مع العقائد الأخرى(٩٩) · ونتيجة لذلك غدا المسيحيون فى نظر الرومان ليسوا الا منشـقين متآمرين مبتدعين لعبادة جديدة غير مرغوب فيها(١٠٠) · وقد أدى ذلك بالمسيحيين الى أن يتعرضوا للاضطهاد لا من جانب الأباطرة الطغاة فحسب ، بل من جانب أباطرة خيرين أمثـال

---

(٩٤) Gibbon, op. cit. p. 87.
(٩٥) Painter, op. cit. p. 13.
(٩٦) Boak, op. cit. p. 395.
(٩٧) Jones, Constantine, p. 42.
(٩٨) Boak, op. cit. p. 395.
(٩٩) Stephenson, op. cit. p. 43.
(١٠٠) Jones, Constantine, p. 42.

تراجان وهادريان ، وأنطونينوس بيوس ، وماركوس أورياليوس(١٠١) ٠

وكان نيرون أول الأباطرة المضطهدين لمعتنقى المسيحية كما يخبرنا بذلك لاكتانيتوس(١٠٢) ويؤكد يوساب(١٠٣) أيضا هذه الناحية فى قوله ان نيرون بدأ سلسلة اجراءات قاسية وتجند لمحاربة اله الكون ، وكان أول امبراطور أعلن العداء للديانة المسيحية ٠ ويبدو أن هذا الاضطهاد كان راجعا الى ما كانت تطالب به الجماهير الغضبى من تقديم كبش فداء للحريق الهائل الذى شب فى روما سنة ٦٤ ، ولم يجد مستشارو الامبراطور بدأ من ارضاء الجماهير الغاضبة ، فأشارت أصابع الاتهام الى المسيحيين ، تلك الطائفة المنعزلة عن المجتمع(١٠٤) ، ومنذ ذلك الزمن فصاعدا أصبحت الحكومة الرومانية تنظر الى المسيحيين باعتبارهم أشخاصا ذوى نيات عدائية للدولة والمجتمع(١٠٥) ، غير أنه مع ذلك لم تكن توجد فى هذا الوقت قوانين أو مراسيم للسناتو سارية المفعول ضد المسيحيين تحرم عليهم ممارسة الطقوس الدينية(١٠٦) ٠

ويخبرنا الكتاب الكنسيون (١٠٧) أيضا ان دومتيانوس Dometianus (٨١ ــ ٩٦) لم يكن أقل طغيانا وقسوة من نيرون ٠ وكان ثانى امبراطور يتابع سياسة الاضطهاد ، وعلى الرغم من أن المسيحيين فى آسيا الصغرى قد لاقوا خلال عهده اضطهادا قاسيا من جانب السلطات المحلية الا أن البعض(١٠٨) يشك فى وقوع هذا الاضطهاد بالصورة التى يرويها المؤرخون الكنسيون لعدم توافر الأدلة على ذلك ٠

ويتضح اتجاه الحكومة الرومانية ازاء المسيحيين فى مطلع القرن الثانى من تلك الرسائل التى تبودلت بين بلينى الأصغر Plinius حاكم

---

(١٠١) Stephenson, op. cit. p. 44.

(١٠٢) LACT, mort, pers. 2.

(١٠٣) EVSEB, hist. eccl. II, 22 - 25.

(١٠٤) Baok, op. cit. p. 298.

(١٠٥) Ibid. p. 396.

(١٠٦) Gibbon. op. cit. I, p. 98.

(١٠٧) LACT. mort. pers. 3; EVSEB, hist. eccl. III, 17.

(١٠٨) Boak, op. cit. 396.

بيثينيا سنة ١١٢ والامبراطور تراجان (٩٧ ــ ١١٧) ، وقد جاء فى رسالة بلينى « أن الطريقة التى اتبعتها مع من اتهموا أمامى بانهم مسيحيون هى هذه : لقد سألتهم هل هم مسيحيون فاذا اعترفوا بأنهم كذلك أعدت السؤال عليهم مرة أخرى ، وأنذرتهم فى الوقت نفسه بأنهم سيقتلون اذا أصروا على قولهم ، فاذا اصروا عليها أمرت بقتلهم » وقد جاء فى رد تراجان على بلينى امتد ح تصرفه بأنه غاية فى الحكمة(١٠٩) ، كما أمر الامبراطور بعدم الجد فى البحث عن المسيحيين وعدم السماح لاتهامات مجهولة ، ولكن اذا وجد المسيحيون ورفضوا اظهار الولاء للآلهة الرومانية وقعوا بذلك تحت طائلة العقاب(١١٠) • أما هادريان (١١٧ ــ ١٣٨) فقد أرسل الى واليه فى آسيا مينوشيوس الفوندى Minucius Fundanus يأمره أن تعطى للمسيحيين فرصة عادلة للدفاع عن أنفسهم فى محاكمة عادلة ، ويجب الا يتعرض أى مسيحى للعقوبة الا بعد التحقق من ذلك(١١١) ، وأرسل أنطونيوس بيوس (١٣٨ ــ ١٦١) الى الجمعية العامة فى افسوس رسالة بهذا المعنى أيضا(١١٢) ، ولم يكن اضطهاد المسيحيين فى ليون على عهد ماركوس أوريليوس (١٦١ ــ ١٨٠) استثناء من السياسة العامة التى درج عليها أباطرة القرن الثانى(١١٣) ، وكانت الاضطهادات التى وقعت على عهد هذا الامبراطور نتيجة لما حل بالبلاد من كوارث نجمت من الفيضانات والاوبئة والحروب ، فساد الاعتقاد بأن سبب هذه النكبات راجع الى الانصراف عن آلهة لروما وانكارها ، وشارك أوريليوس الجماهير فى ذعرها ، أو لعله خضع لها فاصدر فى عام ١٧٧ مرسوما يقضى بعقاب الشيع الدينية التى تنشر الاضطراب باستثارة أصحاب العقول غير المتزنة بتلقينها عقائد جديدة(١١٤) •

---

(١٠٩) Stephenson, op. cit. p. 44.
(١١٠) EVSEB. hist. eccl. III, 33; Schaff. op. cit. II, p. 46.
(١١١) EVSEB. hist. eccl. IV, 9.
(١١٢) Ibid. 13.
(١١٣) Boak, op. cit. p. 397.
(١١٤) ديورنت : المصدر السابق ، مجلد ٣ جـ ٢ ص ٣٧٥ •

وقد خفت حدة الاضطهاد فى عهد كرمودوس Commodus (١٨٠ ـ ١٩٢) وتحسنت أحوال المسيحيين وتمتعت الكنائس بالسلام(١١٥) ولكن سرعان ما عـادت الى ما كانت عليـه بتولى سـبتميوس سـفروس Septimuis Severus (١٩٣ ـ ٢١١) عرش الامبراطورية وربما كان ذلك راجعا الى ما تعرضت اليه الدولة من كوارث لحروبه مع البارثيين(١١٦) وتابع من جديد ماكسيمين قيصر Maximinus (٢٣٥ ـ ٢٣٨) سياسـة الاضطهاد ، وأصدر أمرا بقتل آباء الـكنائس باعتبارهم أصحـاب المسئولية الأولى عن بث هذه التعاليم ، وعلى ذلك كتب أوريجين Origenes اللاهوتى المسيحى الشهير فى القرن الثالث مؤلفه عن الاستشهاد(١١٧) .

هذا الموقف الذى اتخذته الامبراطورية الرومانية تجاه المسيحية حتى نهاية النصف الأول من القرن الثالث كان يتميز بالطابع المحلى(١١٨) . اذ لم يكن هنـاك قانون عام يسرى فى الامبراطورية بأسرهـا يحـدد معاملة المسيحيين ، ولكن ذلك ترك لحكام الولايات أنفسهم حسبما يقضى به الصالح العام للامبراطورية ، ورغم هذه الاضطهادات واجراءات القمع التى اتخذت الا أنها كانت متقطعة ومتباعدة ، ولم تتخذ الحكومة الامبراطورية اجراءات نشيطة وحاسمة وعامة ضـد هـذه العبادات المسيحية(١١٩) ، وكان هؤلاء الأباطرة الذين أقـدموا على الاضـطهاد فى تلك الفترة ـ اذا ما قورنوا بأباطرة النصف الثانى من القرن الثالث ـ غير عنيفين فى اضطهاداتهم ، كما أن الكنيسة نعمت فى عهد كثيرين من أباطرة هذه الفترة بعهود من السـلام والهدوء(١٢٠) .

غير أن الحال بدأ فى التغيير التام مع بداية النصف الثانى من القرن الثالث ، حيث تعد هـذه الفترة التى تمتد حتى سـنة ٢٨٤ ، عندما اعتلى

---

(١١٥) EVSEB. hist. eccl. V, 21.

(١١٦) Lebretson & Zeiller, The history of the primitive church, II, p. 753.

(١١٧) EVSEB. hist. eccl. VI, 28.

(١١٨) Thompson, op. cit. p. 30.

(١١٩) Jones, Constantine, p. 43.

(١٢٠) Gibbon, op. cit. I, 87.

دقلـيانوس العرش الامبراطورى من أحلك الفترات التى مرت بها الامبراطورية وأشـدها خطورة ، نتيجة للحروب الأهلية التى وقعت بين قواد الفرق الرومانية فى الولايات المختلفة ، وغزوات الجرمان من الشمال والغرب ، والفرس من الشرق ، وازدياد متطلبات الامبراطورية واحتياجاتها لمواجهة تلك الأخطار ، ونقص عدد السكان باستمرار نتيجة تفشى الأمراض والاوبئة والطواعين ، وانحطاط الزراعة وتدهور الصناعة وكساد التجارة وانخفاض قيمة العملة ، تلك صورة عامة كانت تدعو للتشاؤم والقنوط ٠

ولقد كان السبب الجذرى لهذه المتاعب التى سـادت الامبراطورية على مدى جيلين يتركز فى عدم انتظام الجيش وفى الطموح السياسى لقواده العسكريين(١٢١) ، وكان الاباطرة ولا شك يتحملون جزءا من هذه الفوضى التى تردى فيها النظام العسكرى الرومانى ، ذلك أن الاباطرة كانوا يحجمون عن أن يطعموا الجيش بالعناصر الأرستقراطية خشية اسـتيلاء هؤلاء على السلطة الامبراطورية حيث أنه لم يكن هناك نظام ثابت فى وراثة العرش ، هذا بالاضافة الى أن الطبقة البورجوازية كانت غير راغبة فى هجر أعمالها للالتحاق بالخدمة العسكرية ، ومن ثم لم يصبح أمام الأباطرة الا طريقين لا ثالث لهما لتكوين جيوشهم ، اما من العبيد وطبقة البروليتاريا ، واما من أعداء الدولة ذاتها الرابضين على حدودها والمتمثلين فى القبائل الجرمانية ، ولا شك أنه كان لهذه الناحية أسوأ الأثر على تكوين الجيش الرومانى الذى أخذ بالتالى يفقد حيويته وأصالته التى امتـاز بهـا لقرنيين قبـل الميلاد وبعده(١٢٢) ٠ وكانت السنة الشهيرة للاباطرة الأربعة ـ سنة ٦٩ ـ قـد علمت الجيش أن الامبراطور يستطيع أن يوجد فى أى مكان خارج روما ، غير أن الجيش لم يحاول لمدة قرن تقريبا بعد ذلك استغلال هذه المعرفة ، وأدت الحرب الأهلية التى أعقبت مقتل كومودوس عام ١٩٢ الى نتائج هامة كان أبرزها اقتناع سبتيميوس سفروس بأن القوة العسـكرية هى كل شىء وقد تجلى ذلك فى رفعه مرتبات جنوده ، ونصيحته الى ولده قائلا « أجزل

---

(١٢١) Jones, Constantine, p. 2.

(١٢٢) Cantor, Medieval history. p. 28.

العطاء للجند ولا تلق بالا للآخرين »(١٢٣) ٠

وليس أدل على هذه الفوضى العسكرية ، وتدخل الجيش فى شئون الحكم ، وما نجم عن ذلك من الحروب الأهلية من أنه فى فترة نصف القرن الواقعـــة بين عامى ٢٣٥ ـ ٢٨٥ تولى عرش الامبراطورية ستة وعشرون امبراطورا لم يمت منهم ميتة طبيعية الا امبراطور واحد(١٢٤) ٠ وفى غالة وحدها بين سنتى ٢٥٧ ـ ٢٧٣ كان هناك خمسة أباطرة(١٢٥) وســـاعدت الفوضى أيضا على أن يسيطر أذينة ومن بعده أرملته زنوبيا من تدمر على كل الأقاليم الممتدة من آســـيا الصغرى الى مصر بصورة اضطر معهـــا الامبراطر جاللينوس Gallienus (٢٦٠ ـ ٢٦٧) أن يمنح اذينة لقب قائد الشرق ويجعله رئيسا للفيالق الرومانية على الفرات ومصر(١٢٦) ٠

وزاد الأمر سوءا ضغط الجرمان على الراين والدانوب ، فعلى الراين الأدنى ظهرت عناصر الفرنجة ، بينما هدد الالمان أعالى الراين والدانوب ، واحتـــل القوط الدانوب الأدنى واكتسحت قبائلهم ـ على عهد الامبراطور دكيوس Decius (٢٤٩ ـ ٢٥١) شبه جزيرة البلقان وعادوا لمهاجمتها ثانية ، واخذوا بيزنطة Byzantium بغتة ، وعبروا البسفور الى آسيا الصغرى حيث وقعت معظم مدن بيثينيا فى أيديهم سنة ٢٦٧(١٢٧) ، ولم تنج الامبراطورية من شرهم الا بعد أن أوقع بهم الامبراطور كلوديوس هزيمـة ساحقة فى ٢٦٩/٢٧٠(١٢٨) ٠

ولم تكن المسألة بقاصرة على الخطر الجرمانى فى الشـمال والغرب فقط ، بل تعرضت لـــا هو أسوأ من ذلك على الجبهة الشرقية عند الفرات ، وتجسد هذا الخطر فى الامبراطورية الفارسية تحت حكم الأسرة الساسانية القوية ، وكانت أوضح صورة لهـــذا الخطر الداهم تلك التى شـــهدتها الامبراطورية فى مطلع النصف الثانى من القرن الثالث عنـدما استطاعت

---

(١٢٣) Jones, Constantine, p. 2.
(١٢٤) Boak, op. cit. p. 401.
(١٢٥) Jones, Constantine, p. 2.
(١٢٦) Cary, op. cit. p. 725.
(١٢٧) Boak, op. cit. p. 408.
(١٢٨) Cary, op. cit. p. 727.

قوات سابور الفارسى أن تستولى على الأقاليم الشرقية للامبراطورية الرومانية ، وأن توقع بالامبراطور فاليريان Valerianus هزيمة قاسية وتأسره سنة ٢٦٠(١٢٩) ، فتعرضت هيبة الامبراطورية فى الشرق لهزة عنيفة .

فاذا ما أضفنا الى هذه النواحى ما نجم عنها تبدت حالة الامبراطورية غاية فى السوء ، فدولاب العمل الاقتصادى كان لابد له أن يقفل أبوابه ويتوقف نتيجة لاقفار الأراضى الزراعية من منتجاتها وفلاحيها بسبب الغزوات الخارجية من جانب الجرمان والفرس الذين عاثوا فسادا فى أراضى الامبراطورية فى الشمال والغرب والشرق ، ولم يكن خطر الحروب الأهلية أقل شأنا من الخطر الخارجى ، وأثر خراب الأراضى الزراعية وضعف الانتاج على الناحيتين الصناعية والتجارية ، وتوقفت الأخيرة أيضا نتيجة اضطراب الأمن وعدم صلاحية طرق المواصلات لسبب أو لآخر . ومع ازدياد عدد المتنافسين على عرش الامبراطورية الطامعين فيه ، ازداد عدد الجيش بما حاوله كل منهم أن يجمعه من الجنود ، وترتب على ذلك زيادة أعطياتهم ، ولم يكن من سبيل لزيادة الدخل لسد هذه النفقات الجديدة الا عن طريق زيادة الضرائب التى أثقلت كواهل الأهلين ، ومزقت الأوبئة شمل الصحة العامة فى الامبراطورية . فغرقت هذه نتيجة هذا كله حتى آذانها فى حالة من الاعياء الشامل والشلل التام ، ولم ينقذها من هذا الهول الا اعتلاء دقلديانوس عرشها سنة ٢٨٤ .

ولقد عبر المؤرخ جونز(١٣٠) عن هذه الحالة أحسن تعبير بقوله « لقد اختفت التقاليد القديمة وعاطفة الولاء ، حقا لقد كان الرجال فخورين بأنهم مواطنون رومان وليسوا برابرة ، ولكن عاطفة الولاء لم تحرك أحدا منهم ليضحى من أجل روما بحياته أو ماله . لقد كانت الامبراطورية شديدة الاتساع ، وكان الأباطرة بعيدين جدا عن القدرة على احياء أية عاطفة سوى شعور الخوف . لقد كانت العواطف التى تعتمد عليها الامبراطورية عواطف ولاء محلية ، فالجندى يحارب من أجل شرف فرقته أو قائده ، وحاكم

---

(١٢٩) Gibbon, op. cit. I, p. 290.

(١٣٠) Jones, Constantine, p. 11.

المدينة يعمل وينفق ماله من أجل مدينته ، والقواد والاداريون وطبقة السناتو والفرسان يتحركون بدافع الطبقية أكثر منها خدمة الامبراطورية · لقد اختفى شعور النبالة الملزمة بين الطبقة الارستقراطية ، وأنتهى الاحســاس بحب الوطن من قلوب الطبقة المتوسطة ، وانحل النظام بين جحافل الجند · لقد ضاع كل شيء ! » ·

على الرغم من كل ذلك ، وفي نفس الوقت نتيجة لكل ذلك ، وبدافـع الرغبة فى الانقاذ ، حمل عدة أباطرة فى هذه الفترة أملا كبيرا فى تجميع كل العناصر السكانية فى الامبراطورية كجبهة متحدة فى مواجهة أعداء الدولة ، وكان المسيحيون بالطبع ضمن هذه العناصر التى كان الأباطرة يعلقون عليها الآمال(١٣١) ، غير أن خيبة الأمل لاحقت الأباطرة فى هذه النظرة ، ذلك أنه فى وسط هذا الجو المتوتر المخيف أجتاحت الامبراطورية موجة من النشوة الدينية القوية ، هرع على أثرها الرجال والنســاء الى الهياكل يحيطون بالآلهة ويضرعون اليها بالصـلوات والدعوات ، فى الوقت الذى وقف فيه المسيحيون على البعد وقفة المتفرج الذى لا يعنيه الأمر ، وظلوا كســابق عهدهم يستنكرون الخدمة العسكرية ويقاومونها ويسخرون من الآلهــة ، يشجعهم على التمــادى فى ذلك زعماؤهم(١٣٢) ، ويفســرون انهيــار الامبراطورية بأنه هو البشرى التى وردت فى النبوءات عن تدمير « بابل » وعودة المسيح(١٣٣) ·

وقد رأى الامبراطور دكيوس فى حالة الشعب النفسية فرصة يستعين بها على تقوية روح الحماس الوطنى والوحدة القومية ، فأصدر مرســوما يطلب فيه الى جميع سكان الامبراضورية أن يتقدموا الى آلهة روما بعمــل يتقربون به اليها ويردون به غضبها · ويلوح أنه لم يطلب الى المسيحيين التنكر لدينهم ، بل أمروا أن يشتركوا فى التوسل الى الآلهة التى طالما أنقذت روما من الخطر المحدق بها كما كان يعتقد العامة(١٣٤) · وكان النجــاح

---

(١٣١) Boak, op. cit. p. 400.

(١٣٢) Boak, op. cit. p. 400.

(١٣٣) ديورنت : المصدر السابق ، مجلد ٣ ج ٣ ص ٣٧٧ ·

(١٣٤) Lebretson & Zeiller, op. cit. II, pp. 793-797.

الظاهرى لهذه الاجراءات واضحا جليا ، فقد استسلم آلاف من المسيحيين ـ خاصة الطبقات الأرستقراطية ـ لقرارات الامبراطور . هـذا فى الوقت الذى اختفى فيه كثيرون منهم ، وتحدى بعضهم الثالث الحكومة فكان جزاؤه الاضطهاد والتعذيب والاعدام(١٣٥) .

كان دكيوس أول الأباطرة الذين جعلوا الاضطهاد عاما فى الامبراطورية، وكان فيما سبق يمتاز بالطابع المحلى(١٣٦) ، وقد قتل فى هـذا الاضطهاد فابيانوس Fabianus أسقف روما ، واسكندر Alexander أسقف أورشليم ، وبابيلاس Babylas أسقف انطاكية ، كما عذب أوريجين السكندرى ، وديونيسيوس Dionysius أسقف الاسكندرية ، هـذا بالاضافة الى أعداد كثيرة أحرقت أو ألقيت لتفترسها الحيوانات فى الاحتفالات والأعياد(١٣٧) .

وقد انتهى اضطهاد دكيوس بموته سنة ٢٥١ ، غير أن سياسته سرعان ما عادت من جديد على عهد فاليريان سنة ٢٥٧(١٣٨) . فنتيجة لأزمة أخرى بثت الرعب فى نفوس الامبراطور والرومان ، تمثلت فى الأخطار التى كانت تهدد الامبراطور من كل ناحية . فالفرنجة والألمانى وقبائل جرمانية أخرى تهدد الراين ، والقوط يهددون شواطىء البحر الأسود وبحر ايجه ، وثورات البربر فى شمال أفريقيا لا تهدأ ، والغزو الفارسى للولايات الشرقية سائر قدما(١٣٩) ، نتيجة لكل ذلك أمر الامبراطور أن يمتثل كل شخص للشعائر الرومانية ، وأن يقوم الجميع بتقديم القرابين للأرباب ، وحرم كل الاجتماعات المسيحية(١٤٠) ، ثم قام باضطهاد المخالفين واعدام عدد كبير من الأساقفة والقساوسة(١٤١) . وتعرض أسقفا الاسكندرية فى عهده ديونسيوس وخلفه ماكسيموس لأشد أنواع الاضطهاد ونفيا الى ليبيا(١٤٢) .

---

(١٣٥) Id.; Jones, Constantine, p. 44.
(١٣٦) Thompson & Johnson, op. cit. p. 30.
(١٣٧) EVSEB, hist. eccl. VI, 39-40.
(١٣٨) Boak, op. cit. p. 413.
(١٣٩) Lebretson & Zeiller op cit. II, p. 801; Gibbon op. cit. I, p. 274 - 290.
(١٤٠) Latourette, A history of Christianity, pp. 88 - 89.
(١٤١) Jones, Constantine, p. 44.
(١٤٢) EVSEB. hist. eccl. VII, 11.

وأنهى الامبراطور فاليريان اضـطهاده بوقوعه أسـيرا فى يـد الفرس سنة ٢٦٠ ·

وكان موت هؤلاء الأباطرة المضطهدين وغيرهم بالطريقة التى تم بها من الاغتيال والأسر وما شاكله ــ فى نظر مؤرخى الكنيسة ــ انتقاما عـدلا من الرب الذى كان لأعداء رعيته بالمرصاد ، ومن ثم عد مقتل دكيوس وأسر فاليريان ضربا من ضروب الانتقام الالهى(١٤٣) ·

ولقد نعمت المسيحية بفترة من السلام والهدوء دامت أربعين عاما ، دخل الناس خلالها فيها أفواجا ، بعـد أن أخـذوا يفرون من أربابهم الذين لم يجدوا لديهم المأوى ، والذين لم يستطيعوا حمـاية الدولة من أعدائها ، ووجدوا السلوى فى المسيحية أكثر مما وجدوها فى غيرها · ونتيجة لتحول عدد من الاغنيـاء الى المسيحية ، شـيدت الكنائس الفخمة فى كثير من المدن(١٤٤) ، وترتب على ذلك أيضا أن أخذت الاعتراضات على تولى الوظائف العامة من جانب أثرياء المسيحيين تتوارى ، بل وأصبح المسيحيون حكاما للولايات(١٤٥) ، ووجد منهم أيضا من يحتـل مناصب عليـا فى البلاط الامبراطورى(١٤٦) · وكانت هذه الفترة من السلام فرصة كبيرة للكنيسة كى تستكمل فيها بناءها وتنظيمها الداخلى ، وأصبح التقليد العملى أن يجتمع أساقفة كل اقليم أو ولاية فى عاصمتها بصورة منتظمة ، كما كان لأسـقف العاصمة أو المطران سلطات معينة على المناطق التابعة لمطرانيته ، وأخـذ التنظيم الكنسى يميل الى تشكيل نفسه على أسس مدنية ، فأصبحت المدينة التى يقيم فيها نائب الحاكم المركز الطبيعى للاجتماعات الكبرى ، وحصـل أسقفها على سلطات واسـعة فى دائرة اختصاصه ، فقـد اعترف بقرطاجنة كعاصمة دينية لافريقيا ، وأنطاكية للشرق عدا مصر حيث تبوأت الاسكندرية مركزا مرموقا(١٤٧) ·

---

(١٤٣) LACT. mort. pers. 2-6. EVSEB. hist. eccl. VI, 28, 39 - 40. VII, 13.

(١٤٤) Jones, Constantine, p. 44.

(١٤٥) EVSEB. hist. eccl. VIII, 1.

(١٤٦) Bcak, op. cit. p. 428.

(١٤٧) Jones, Constantine, p. 45.

ولقد كان الامبراطور جاللينوس صاحب الفضل الأول فى بدء اقرار هذه الفترة من الهدوء بالنسبة للمسيحية ، ذلك أنه أصدر مرسوما سنة ٢٦١ يعد أول مرسوم يقضى بالتسامح الدينى ، اعترف فيه بأن المسيحية مسموح بها ، وأمر بأن يرد الى المسيحيين ما كان قد صودر من أملاكهم(١٤٨) وقد حفظ لنا المؤرخ الكنسى يوساب صورة رسالة موجهة من الامبراطور الى أسقف الاسكندرية وأسقف أنطاكية جاء فيها « لقد أصدرت أمرى باغداق هباتى على كل العالم ، وأن يبتعدوا (الوثنيين) عن أماكن العبادة (الخاصة بالمسيحيين) ولهذا يمكنكم استخدام هذه الصورة من أمرى كى لا يزعجكم أحد »(١٤٩) .

هكذا أقدم الامبراطور جالليوس على خطوة جريئة لم يسبقه اليها امبراطور ، وسبق هو بها ما صدر من مراسيم بعد ذلك سنة ٣١١ على عهد جاليريس وسنة ٣١٣ من جانب قسطنطين وليكينيوس ، وحظيت المسيحية لأول مرة على صك حكومى(١٥٠) يرفع عن كاهل أتباعها ويلات الاضطهاد ، ويسمح لهؤلاء بممارسة طقوسهم الدينية ، ويحرم على الوثنيين التعرض لدور العبادة المسيحية .

غير أن مرسوم جالليوس لم يلق من العناية أو الاهتمام — من جانب الدارسين — ما لقيه أمثاله من المراسيم التى صدرت بعد ذلك ، بل ان هذا المرسوم لم يؤخذ مأخذ الجد من جانب حكام الولايات، مما يدل على عظم نفوذهم فى هذه الفترة ويعد هذا شيئا طبيعيا فى وقت هوت فيه الامبراطورية الى درجة كبيرة من الفوضى والانحلال ضاعت معها سلطة الأباطرة . ويشهد على ذلك ما ذكره يوساب(١٥١) من أن ماكرينوس Macrinus والى مصر كان لا يزال صاحب نفوذ كبير ، وقد تلكأ فى تنفيذ أوامر الامبراطور مما أدى الى مقتل مارينوس Marinus أحد رجال قيسارية فلسطين الشهيرين . وحتى الأباطرة أنفسهم الذين خلفوا جالليوس لم يلقوا بالا فى غمرة صراعاتهم

---

(١٤٨) Lebreston — Zeiller, op. cit. II, p. 806.
(١٤٩) EVSEB. hist. eccl. VII, 13 - 15.
(١٥٠) Schaff, op. cit. II, p. 63.
(١٥١) EVSEB. hist. eccl. VII, 15.

الداخلية والأخطار الخارجية ـ الى هذا المرســـوم ، فألمت على عهودهم بالمسيحيين بعض من اضطهادات ٠

وفى عـــام ٢٨٤ اعتلى دقلديانوس Diocletianus عـــرش الامبراطورية ، فولى طهره لروما ، تلك العاصمة الامبراطورية التليـــدة ، والتى أضحت منذ مدة طويلة غير ذات مقام للأباطرة ، واتخذ من نيقوميديا Nicomedia بآسيا الصغرى عاصـــمة جديدة له ، فأضـــحى بذلك على مقربة من التقاليد الهلنستية والأوتوقراطية الفارسية ، فنهل من هـــذه وتلك فى ســـبيل اعادة شـــباب الامبراطورية لانقاذها من أزمة القرن الثالث الطاحنة ٠

تتلخص اصلاحات دقلديانوس (٢٨٤ ـ ٣٠٥) فى تقرير بناء حكم مركزى صارم ، وادخال نظام بيروقراطى واسع المدى ، وأيضا بفصـــل تام بين السلطتين المدنية والعسكرية ، فأخذت الامبراطورية بذلك تؤكد ما كانت قد بدأت تنحو اليه منذ زمن مبكر وهو مركزية السلطة(١٥٢) ٠ ولمـــا كان دقلديانوس قد أمضى من حياته فترة طويلة فى نيقوميديا ، وكان على العموم ميالا للشرق ، فانه اقتبس كثيرا من سمات الملكيات الشرقية ٠ لقـــد كان أوتوقراطيا صرفا ، وامبراطور الها متحليا بالتاج الامبراطورى ، وجد البزخ الشرقى والطقوس الحافلة طريقها الى بلاطه ، وكان على رعاياه اذا ما سمح لهم بالمثول بين يديه ، أن يخروا سجدا قبل أن تجرؤ عيونهم على أن ترمق صاحب الجلالة ، فلقد كان لكل ما يخص الامبراطور قداسة ، كلماته ، بلاطه، خزائنه ، اذ كان الامبراطور نفسه مقدسا(١٥٣) ٠

وفى سبيل تنظيم الادارة الامبراطورية الشاسعة استحدث دقلديانوس نظام « الحكومة الرباعية » التى كانت تضـــم أوغسطين لكل منهما ســـلطة مطلقة ، يقيم أحدهمـــا فى الشرق ـ وكان ذلك هو دقلديانوس نفســـه ـ والآخر فى الغرب وهو ماكسيميان Maximianus ٠ ويعين كلا منهما قيصر يحل محله عند وفاته أو اعتزله وهما جاليريوس وقسطنطيوس ٠ وكان قصد

---

(١٥٢) Vasiliev, History of the Byzantine Empire, I, p. 60

(١٥٣) Ibid. p. 62.

دقلديانس بذلك أن يفوت الفرصـــة على الفيالق الرومانيـة وتدخلها فى اختيار الأباطرة ، غير أن نظامه سرعان ما عصفت به الأنواء بعد اعتزاله بعام و حد ٠

على أن سمعة دقلديانوس قاست كثيرا من جـراء اتهامه بالمسئولية الأولى فى الاقدام على البدء بالاضـــطهاد الأخير والاعظم للمسيحيين ٠ ومعلوماتنا عن هذه النقطة نستقيها من مصدرين هامين خـفهما لنا كاتبان مسيحيان عاصرا أحداث تلك الفترة ٠

ينبئنا يوساب أن الاضطهاد قد وقع فى السنة التاسعة عشرة من حكم دقلديانوس(١٥٤) أى عام ٣٠٣ ٠ ويصور أسباب هذا الاضطهاد فى صورة تحذير الهى لجماعة المسيحيين حتى يتطهروا من أدرانهم فيقول : « عندما سقطنا فى التراخى والكسل بسبب زيادة الحـرية ، وصرنا نحسـد ونهين بعضنا بعضا ، والشعب يؤلف الأحزاب ضد الشعب ، وبلغ الرياء والنفاق أعظم حدود الشر ، فان العدل الالهى سمح بازعاج الكنيسة »(١٥٥) ٠

غير أن هذا القول لا ينقع غلة ، فالذى يتبادر الى الذهن لأول وهـلة من عـارة يوساب أنه يقصد بهذا القول ذلك النزاع العقائدى الذى نشـــأ بين الفرق المسيحية المختلفة ، ولم يكن هذا الأمر يعنى الامبراطورية فى شىء الا الـخوف من حدوث الشقاق والانقسام بين رعايا الدولة مما يهدد وحدتها ٠ ولكن السلطة الامبراطورية فى هذه الفترة كانت تنظر الى المسيحية باعتبارها كلا و حدا كطائفة قائمة بذاتها ، بكل ما فيها من عناصر الاختلاف والفرقة حول المشاكل العقائدية التى لم تكن تعنى الدولة فى شىء ، ومن ثم لا يمكن أن يكـن النزاع العقائدى والخوف من مغبة الانقسام سببا فى هذا الاضطهاد الدقلديانى ٠ أما مسالة « العدل الالهى الذى سمح بازعاج الكنيسة » فذلك شىء لا يفسر تماما هذه الناحية ٠

أما لاكتانتيوس وكان يقيم فى نيقوميديا آنئذ ـ فانه يســـوق حادثة طريف كانت شرارة البدء فى هذا الاضطهاد ، ذلك أنه حدث أثناء قيـــام

---

(١٥٤) EVSEB. hist. eccl. VIII, 2.
(١٥٥) EVSEB. hist. eccl. VIII, 1.

الامبراطور وقيصره جاليريوس بتقريب الأضحيات للآلهة ـ كسبا لرضاها ـ أن أرادا استطلاع الغيب والكشف عما يخبئه القدر للامبراطورية ، وتصادف وجود عدد من المسيحيين من موظفى البلاط أثناء ذلك الاحتفال وقد رسموا شارة الصليب ليتقوا بها كافة الشرور ، فلما نحرت الأضحيات ، وفحصت أكبادها لاستطلاع ذلك المجهول ، عجز العرافون عن التنبؤ بشىء ، فاعادوا الكرة ثانية دون جدوى ، فارتعدوا وأعلن زعيمهم تاجيس Tagis أن ذلك راجع الى وجود أفراد ملحدين مدنسين فى الاحتفال ٠ وهنا جن جنـون دقلديانوس ـ كمـا يروى لاكتانتيوس(١٥٦) ـ وأمـر ـ ليس أولئـك الموجودين فحسب ، بل كل من يقيم فى القصر ، بتقريب القرابين للأرباب ، على أن يجلد أى فرد يأبى ذلك ، وسرعان ما صـدرت الخطابات منه الى قواده حاملة أوامره بوجوب تنفيـذ الجنـود جميعا لهـذه التعليمات ، والا تعرضوا للطرد من الخدمة نهائيا ٠

ويبسط لاكتانتيوس المسالة فى صـورة غريبة حقـا ، فهو ينفى عن دقلديانوس تهمة الرغبة الحقيقية فى اشعال نيران هذا الاضطهاد ، ويعزوها كلية الى قيصره جاليريوس ، ويذكر أن هذا القيصر كان واقعا تحت تأثير أمه التى كانت تتعلق بآلهة الجبال ، وتضحى لها باستمرار ، وحـدث فى احدى المرات أثناء تقريبها الأضحيات أنه لم يشترك معها أحـد من أفراد أسرتها الذين كانوا قد تحولوا الى المسيحية ، فتسلطت عليها روح شريرة ورغبة جامحة فى الخلاص من هؤلاء المسيحيين ، ومن ثم أوحت الى ابنها بذلك ، فانتهز فرصة وجود دقلديانوس فى بيثينيا وعقد معه عدة اجتماعات ثنائية لم يحضرها أحد غيرهما ، تناولت بالطبع شـئون الامبراطورية ومن بينها مشكلة المسيحيين هذه(١٥٧) ٠

ويضيف مؤرخنا أن دقلديانوس عارض طويلا الحاح جاليريوس موضحا له الضرار البالغ والاضطرابات التى سيشهدها العالم الرومانى ، وكم من الدماء سيراق من جراء ذلك لأن المسيحيين ـ كما يعـلم ـ سوف يقبلون على الموت غير مترددين ، وأن ذلك لابد وأن يشمل عددا كبيرا منهم سـواء

---

(١٥٦) LACT. mort. pers. 10.
(١٥٧) LACT. mort. pers. 11.

فى البلاط أو فى الجيش ، ولـكن دقلديانوس لم يستطع أن يكبح جمـــاح ذلك الرجل العنيد ، ومن أجـــل ذلك عزم على الأخـــذ برأى أصـــدقائه ومستشاريه ، فدعاهم اليه وطرح المسألة أمامهم ، فوقف عدد منهم ينادى بوجوب استئصال شافة المسيحيين ، أما الآخـــرون الذين كانوا يفكرون بطريقة مختلفة تماما عن ذلك ـ وقد فطنوا الى أغراض جاليريوس سـواء بالخوف من اثارة غضبه ، أو الرغبة فى ادخال السرور على قلبه ـ انضموا لأصحب الرأى الأول ٠ غير أن الامبراطور مع ذلك لم يذعن وعـزم على استلهـم وحى الآلهـــة ، فبعث من يأتى له برأى الاله أبوللو ٠ الذى كانت اجابته ـ على حد قول لاكتانتيوس معروفة مقدما كعدو للديانة المسيحية ، وهكذا استميل دقلديانوس ولم يستطع مقاومة قيصره ومستشاريه وربه ، وكان راغبا فى اتمام هذه الاجراءات بشىء من الاعتدال دون اراقه الدماء ، بينما امر جاليريوس أن يحرق حيا كل من يرفض تقريب القرابين(١٥٨) ٠

تلك صورة يرسمها لاكتانتيوس للامبراطور دقلديانوس ، ويؤكد هذه المسألة بقـوله ان الامبراطور كان يخشى جاليريوس تماما ، ويقيم له كل اعتبار مـــذ قام ملك الفـــرس نارسيوس Narseus بشن حـــرب على الامبراطورية يبغى من ورائهـا الاستيلاء على أقاليمها الشرقية ، ولما كان دقلديانوس يخشى أن يشرب من كأس الأسر الذى تجرعه فاليريان من قبله ، فقد بعث بجاليريوس لمقابلته ، بينما قبع هو فى الأقاليم الشرقيـــة ٠ فلما انتصر جاليريوس ازداد دقلديانوس هلعا منه وخشية(١٥٩) ٠

اذن فالصورة التى رسمتها ريشة لاكتانتيوس توضح دقلديانوس رجلا حذرا بصيرا بالعواقب ، عندما راح يجادل جاليروس الرأى حـول النتائج الخطيرة التى ستنجم عن الاقـــدام على هـــذه السياســة ، وما سيصيب الامبراطورية من جراء ذلك من بالغ الضرار ـ ولكنه الى جانب ذلك رجل مسلوب الارادة ، على حين قيصـــره جاليروس ـ رغم كونه الرجـل الثالث فى الامبراطورية ـ الرجل الأقوى الذى ينفذ دائمـــا ما يبتغى وفى الوقت الذى يريد ، وسنجد أن لاكتانتيوس يضـــرب بصفـة مستمرة على أوتار

---

(١٥٨) LACT. mort. pers. 11.

(١٥٩) Ibid. 9.

الضعف لدى دقلديانوس عند مسألة الاقدام على احراق كنيسة نيقوميديا ، أو ازدياد العنف والصرامة فى مراسيم الاضطهاد ، أو عند اعتزاله واختيار من يخلفه ،ومن ثم يبدو جاليريوسر المحرك الأساسى لهذه الأحداث جميعها ،

ولقد أقدم دقلديانوس ــ رغم علمه بخطأ ما هو عليه مقدم ــ على حرمان المعترفين بقانون الايمان المسيحى من البقاء داخــل جدران قصره ، أو تحت النسر الرومانى فى جيشه ، وكان ذلك بالطبع كريهــا الى نفسه ، كما يعتقد لاكتانتيوس ، لسابق معرفته بما سوف يخسره الجيش والادارة من جراء هذه السياسة ٠

ولــكن هل يعقل أن رجـــلا كدقلديانوس ــذلك الامبراطور القـــدير كما برهن عن نفســه دائما فى سياستــه ، فعلى الرغم من أنه لم يكن قائدا عسكريا ماهرا على غرار من سبقه من الأباطرة ، الا أنه كان يتمتع بمقدرة ادارية فائقة(١٦٠) ٠ وهذا واضح خلال ثمانية عشر عاما قضاها منذ بداية حكمــه ، حتى انفجــار ذلك الاضطهاد ، فى اصــــلاح شئون الامبراطورية وتنظيم أمورها وانتشالها من وهدتها التى تردت فيها طيلة نصف قرن كامل أو يزيد(١٦١) ٠ هل يعقل أن رجــلا هــذا شأنه يلقى بقيــاد أمره ويستسلم ببساطة الى لجاجة والحاح رجل آخر يعد صنيعته ، وأحد أتباعه ؟ ويقــدم على اتخاذ خطوات غاية فى الخطورة كان يعلم هو مقدما ما الذى ستؤدى اليه فى داخل الامبراطورية لا لشىء سوى أن قيصره أراد ذلك ؟

اذن فلنبحث عن شىء آخـــر يقودنا الى حقيقة ذلك الأمر ٠ ونطرح المسألة فى صيغة سؤال : ما الذى دفع دقلديانوس ــ بعد ثمانية عشر عاما ــ لأن يغير سياسته تجاه المسيحيين ؟

لا يمكن القول مطلقا ان أقدام الامبراطور على الاضطهاد كان استجابة لثــورة جماهيرية غاضبة ، كما شهدناه يحدث مثلا على عهــــدى دكيوس وفاليريان ٠ فالأمور فى الامبراطورية كانت مستقرة بوجه عام فى هـــذه الآونة سنة ٣٠٣ ،ولم تكن هناك أخطار خارجية تهددها ، وكان دقلديانوس

---

(١٦٠) Cary, op. cit. p. 730.

(١٦١) Boak, 428 op. cit. p. 428.

قد أعاد تنظيم الادارة الامبراطورية ، والجيش الرومانى ، والأحوال الاقتصادية وكافة شئون الدولة · وعلى ذلك فلم يكن هناك غضب جماهيرى يتأجج فى صدور الأهلين يطالب بالانتقام من المسيحيين لسبب أو لآخر ·

كما أنه لا يمكن القول أيضا ان هذا الاضطهاد جاء نتيجة لوحى الهى تلقاه الكهنة وأبلغوه الى الامبراطور فأقدم على تنفيذه ، فالمسيحيون كانوا يحتلون كثيرا من المناصب العامة فى الادارة وحكومات الولايات والجيش والقصر الامبراطورى ذاته ، ولم يحاول دقلديانوس طوال الثمانى عشرة سنة أن يستجيب لنداء كهنوتى صادر من الأرباب ضد هذه الجماعة ·

ويعلل بوركهارت(١٦٢) هذا التغير فى سياسة دقلديانوس باكتشاف مؤامرة بين المسيحيين ترمى الى قلب نظام الحكم والاستيلاء على السلطة ، ولكن بوركهارت لا يعطينا فى نفس الوقت تبرير معقولا قاد المسيحيين الى الثورة أو الاقدام على خيانة امبراطور أبدى لهم من التسامح الكثير خلال فترة طويلة من عهده ·

ويقدم آخر(١٦٣) تعليلا ثانيا لذلك فحواه أن عددا من موظفى القصر والخدم المسيحيين لدى دقلديانوس كانوا يخشون ما سيحدث لهم عقب خلافة جاليريوس للامبراطور لما يعرفونه عنه من عداء للمسيحية والمسيحيين ، وأنهم – على الأقل – ان لم تنلهم أيدى التعذيب فلا أقل من أن تمتد اليهم يد الطرد من الخدمة ، وعليه فقد سعوا جاهدين لدى دقلديانوس ليبعد جاليريوس عن طريق خلافة العرش ، ومحاولة الاحتفاظ بالعرش لشخص يرون فيه تعاطفا مع المسيحيين ، وربما قسطنطين الذى كان يقيم عندئذ فى بلاط دقلديانوس ، وكان مكروها من جاليريوس كرها عميقا ، بل لقد ذهب الأمل ببعضهم الى حد الاعتقاد بأنه يمكن تحويل دقلديانوس الى المسيحية ، والتأثير عليه بسهولة آنذاك لاقصاء جاليريوس عن عرش الامبراطورية المتوقع · وعلى الرغم من أنه لم يكن يدور بخلد أى منهم

---

(١٦٢) Burckhardt, The age of Constantine the great, pp. 250 - 251.

(١٦٣) McGiffert, notes on (EVSEB. hist. eccl.) Nicene and P.N.F. 1, pp. 398 - 399.

شيء عن الغدر أو الخيانة ، الا أن تحركاتهم كانت كافية لاثارة الشك والارتياب لدى القيصر نفسه ،والذى كان الأمر يهمه كثيرا . وكان أيضا على علم تام بما يحمله المسيحيون له من حقد دفين ، ومن ثم دفعه ذلك الى أن يختلى بدقلديانوس فى شتاء سنة ٣٠٢ ويعقدا معا اجتماعات سرية . ومع تحركاته لدى الامبراطور ، ازداد خوف مسيحيى القصر من نياته ، وهكذا نتصور أنه بينما كان جاليريوس يفتش عن الأدلة التى تثبت التآمر ضده ، كان التآمر نفسه ينمو ويأخذ شكلا معينا ـ على الأقل فى نفوس بعض الجسورين من المسيحيين ، ونتيجة لذلك تجمعت الادلة التى كانت كافية حتى لتقنع دقلديانوس نفسه بأن هناك بالفعل تآمرا ، وأن المتآمرين مسيحيون .

ويضيف صاحب هذا الرأى أنه ارتفع فى هذه الآونة لدى دقلديانوس سؤال عن الخطة التى سوف تتبع ازاء هذه الأحداث ؟ وقد نتج عن ذلك تلك الدعوة التى وجهت الى مستشارى الامبراطور وكهنة أبوللو كما أسلفنا . ويقول أن جاليريوس كان يرغب فى ابادة المسيحيين عامة لعلمه بعداوتهم ضده ، لكن دقلديانوس كان يريد معاقبة من اشترك فى التآمر فقط ، وعلى الرغم من أنه أقنع أن المسيحيين عامة قد اشتركوا فيه ، الا أن قراراته الأولى فى هذا لصدد تؤكد رغبته ، فبدلا من اصدار مرسوم ضد المسيحيين عامة وجه دقلديانوس ضرباته أولا الى المسيحيين فى الدوائر الحكومية والوظائف العامة والخدم فى القصر الامبراطورى ، ولا شك أن هذه الاجراءات ليست اجراءات امبراطور يضطهد لأسباب دينية(١٦٤) .

خلاصة القول أن صاحب هذا الرأى يؤكد أن الأسباب التى دفعت دقلديانوس الى هذا الاضطهاد كانت أسبابا سياسية وليست دينية(١٦٥) .

ويزيد الأمر تعقيدا ذلك الصمت من جانب يوساب ، والتحفظ من ناحية لاكتانتيوس فالأول ـ كما قدمنا ـ يعلل المسألة تعليلا دينيا صرفا ويضفى عليها طابع العدل الالهى بعد أن فسد المسيحيون ـ على حد قوله ـ

---

(١٦٤) McGriffert, op. cit. pp. 398 - 399.

(١٦٥) Id.

ولا يعطينا أى سبب واقعى لهذا الاضطهاد ، على خلاف ما ذكره مثلا عن الاضطهاد الذى وقع على عهدى دكيوس وفاليريان ٠

أما لاكتانتيوس فيسوق القصة التى أوردناها عما يعتقد انه سبب كاف للاضطهاد ويقدم لها بقوله « لقد نما الى علمى أن سبب غضبه (يعنى دقلديانوس) كان كما يلى ، ثم يورد القصة التى قدمناها ٠ فاذا أضفنا تحفظ لاكتانتيوس الى محاولاته المتكررة الدفاع عن دقلديانوس بتجريده من اوادته وتسليم قياده الى قيصره ، أدركنا انه ربما كان هناك دافع معين حدا بلاكتانتيوس الى ذلك ، خاصة وأنه كان يقيم فى نيقوميديا ، وعلى مقربة من القصر الامبراطورى ، وذلك شىء يمكنه من أن يغدو شاهد عيان لتلك الأحداث وما يدور فى الخفاء ٠

قد يكون من معقول القول أن لاكتانتيوس كان يدافع عن دقلديانوس ـ ولا نقصد بالدفاع هنا وقوفه فى صفه وانما محاولته نفى أو على الأقل تخفيف اتهامه بالمسئولية الكاملة عن هذه الاضطهادات ـ حفظا لمعروف أسداه اليه دقلديانوس ٠ ذلك أن الامبراطور دقلديانوس كان قد استدعى لاكتانتيوس من أفريقيا وعينه معلما للبيان فى نيقوميديا ، وكان هذا فى حد ذاته تقديرا للكاتب المسيحى الذى رأى أن يرد على الامبراطور تلك اليد البيضاء ، فحاول جاهدا انصافه من التورط الكامل فى مسئولية الاضطهاد ٠ ولعل هذا يبرر موقف كاتبنا ٠

لقد كاد دقلديانوس خير أنموذج للحاكم الأوتوقراطى الذى أراد أن يجمع السلطة المركزية كلها فى يده ، ويشرف بنفسه وجهازه البيروقراطى على كل صغيرة وكبيرة فى الدولة ، وقد سعى جاهدا ليحقق ذلك ونجح فيه الى حد كبير ، ومن ثم لم يكن دقلديانوس يتصور مطلقا أن تخرج الكنيسة عن دائرة نفوذه ، وأن تغدو بذلك دولة داخل الدولة ، وكان يعتقد والقلق يملأ عليه كل نفسه ـ أن النظام المسيحى على هذه الصورة سوف يودى بجهوده الضخمة التى بذلها طيلة هذه السنوات فى سبيل وحدة الامبراطورية وتقويتها(١٦٦) ٠ ولما كان قد قضى من سنوات حكمه فى نيقوميديا الشىء

---

(١٦٦) Cantor, op. cit. p. 43.

الكثير ، وتشــرب مبادىء الشــرق الهلنستى والامبراطورية الفارسية عن عظمة الحاكم وتقديسه ، فقد سعى الى تقليد تلك النظم وغـدا الامبراطور وكل ما يخصه ذا قدسية وجلال · وأضحى السلطة المطلقة فى الامبراطورية كلهــا ، وبذلك كان يرى ـ كمــا يرى جاليريوس ـ أن المسيحية هى آخـر العقبات القائمة فى سبيل هـــذه السلطة · وكان جاليريوس بالطبع يدرك ما تنطوى عليه نفس الامبراطور من طموح وحب للسيادة المطلقــة ونزعة طاغية للعظمة ، فراح يزين له هذا السبيل ، ولم يدع فرصة واحــدة دون أن يضرب للامبراطور على أنغام استكمال هذه العظمة وذلك السلطان الذى لن يتأتى الا عن طريق اتمام الوحــدة الدينية فى الامبراطورية بالقضــاء على المسيحية ·

ولنضف الى هـذا سببا على جانب كبير من الأهمية ، ذلك أن عـددا ليس بالقليل من أفراد الجيش كان قـد اعتنق المسيحيــة(١٦٧) ، فامتنعوا بذلك عن ممارسة الطقوس الوثنية الخاصـــة بتقريب الأضحيات واحراق البخور أمام تمثال الامبراطور وهو الاجراء الذى كان فى حـــد ذاته يعد دليلا على الولاء للامبراطور رأس الدولة ـ كما قدمنا ـ وأدرك دقلديانوس بذلك أن هذه العقيدة سوف تعصف بولاء الجند لشخصه وهو أخشى ما كان يخشاه الامبراطور ، فما « الحكومة الرباعية » التى انشأها لادارة شئون الامبراطورية الا نظام قصد به القضـــاء على تلاعب الجيش بالأباطرة ، فكيف يصبح الحال الآن والجند لا يكنون لقوادهم الوثنيين ولا لامبراطورهم الوثنى كذلك أى عاطفة من الولاء ؟ ·

ولعل مما يدعم هذا القول ما يذكره المؤرخ الكنسى يوساب(١٦٨) من أن الاضطهاد بدأ « بالاخوة الذين فى الجيش » ·

على اية حال تضمن اضطهاد دقلديانوس مراسيم أربعة صدرت ثلاثة منها فى عام ٣٠٣ ، ينص الأول على تدمير الكنائس المسيحية ، واحراق الكتب المقدســة ، ويقضى الثــانى والثالث بالقبض على كافة رجــال الاكليروس

---

(١٦٧) Jones, Later Roman Empire, 1, 71.
(١٦٨) EVSEB. hist. eccl. VIII, 1.

بمختلف طبقاتهم وعدم الافراج عنهم الا بعد أن يقدموا القرابين لآلهة ، الدولة ، أما المرسوم الرابع فقد صدر سنة ٣٠٤ ويلزم كل فرد فى الدولة أن يقرب للآلهة أضحياته(١٦٩) .

وقد اذيعت هذه المراسيم ، وخاصة الثلاثة الأولى منها - فى الامبراطورية كلها ، غير أن تنفيذها لم يكن بنفس الدرجة فى الشرق والغرب(١٧٠) ، فالأقاليم التى كانت خاضعة لدقلديانوس وجاليريوس بلغت الحال فيها حدا كبيرا من العنف ، ونفذ ماكسيميان المراسيم الامبراطورية فى ايطاليا واسبانيا وأفريقيا . أما قسطنطيوس Constantius قيصر غالة وبريطانيا فلم يأخذ المسألة مأخذ الجد الذى سارت به فى الشرق ، وحتى لا يبدو فى صورة المعارض لرئيسه الامبراطور ، فقد أمر بهدم حوائط الكنائس وبصورة تمكن من سهولة اعادة بنائها ثانية(١٧١) ويبدو أنه لم يلزم نفسه سوى بتنفيذ المرسوم الأول فقط ، ولم يلق بالا الى بقية المراسيم ، ولعل السبب فى ذلك يرجع الى قلة عدد المسيحيين فى أقصى الغرب الذى كان يسيطر عليه اذا ما قورن بالمسيحيين فى الشرق(١٧٢) .

ويخبرنا لاكتانتيوس(١٧٣) أن دقلديانوس وقيصره راحا يتبادلان الرأى حول احراق كنيسة نيقوميديا التى كانت مواجهة للقصر الامبراطورى، واستقر رأيهما فى النهاية على هدمها خوفا من أن تمتد النيران منها الى الأبنية المجاورة التى تحيط بها ، وسرعان ما سويت الكنيسة بالارض .

وكان المسيحيون وقتئذ من الكثرة بحيث يستطيعون رد العدوان بمثله ، فقامت حركة ثورية فى سوريا ، واضرمت النيران فى القصر الامبراطورى مرتين فى مدة قصيرة ،ويذكر لاكتانتيوس(١٧٤) أن جاليريوس هو الذى أرسل تابعيه لاحداث ذلك حتى يزيد من غضب الامبراطور وسخطه على المسيحيين ، الذين ردوا عليه بدورهم التهمة بمثلها ، وكانت النتيجة

(١٦٩) Ibid. 2.
(١٧٠) Jones, Later Roman Empire I, 72.
(١٧١) LACT. mort. pers. 15.
(١٧٢) Boak, op. cit. p. 429.
(١٧٣) LACT. mort. pers. 12.
(١٧٤) Ibid. 14.

أن ألقى القبض على عـدد كبير من المسيحيين وقعوا تحت طائلة التعـذيب حتى يعترفوا بارتكاب جريمة الحرق العمد(١٧٥) ·

ويصف معلم البيان الافريقى(١٧٦) الحالة بقـوله « أصبح اضطهاد دقلديانوس الان عاما وشاملا فقد بـدأ بقهر ابنته فاليريا Valeria (زوجه جاليريوس) ، وزوجته برسا Prisca ، وكانتا مسيحيتين على أن تقـربا الأضحيات ، كما ذبح أحـــد الخصيان الذى كان صاحب سطوة كبيرة فى القصر ، وسيق القسس والموظفون وعائلاتهم ، وبلا اعتراف أو محاكمة ــ الى القتل زمرا ، أما الحـرق حيا فلم يكن يفرق فيــه بسبب جنس أو سن ، ولما كانت أعداد هؤلاء كبيرة فـلم يكونوا يحرقون فرادى ، بل كانت توقــد لهم نار واحـــدة تضمهم جميعــا ، وغصت السجون بمن فيهـــا وارتـعت الامبراطورية لهذه الويلات ·

اما يوساب فيفصل المسألة تفصيلا دقيقا ، ويذكر باسهاب طويل صور التعذيب ووسائله ، وأولئك الذين نالوا الشهادة من أجل الرب ، أو نالتهم يد العذاب ، ويكفينا فقط أن نقول هنا أنه أفرد لعصــر دقلديانوس وحـــده الكتاب الثامن من تاريخه الكنسى ، وعقــد لشهداء فلسطين فى هذه الفترة فصلا خاصا ·

ونحن اذ نستقى معلوماتنا عن هــذه الأحــداث من كاتبين مسيحيين هما لاكتانتيوس ويوساب يجب أن نضع اعتبارا لموجة الحماس الجارف التى كانت تتملك على الكاتبيز مشاعرهما ، وهما يخطان للأجيال قصة الكنيسة المسيحيــة ، وما كان يسيطــر على أولهمــا من كــره عميق تجــاه هــؤلاء المضطهدين ، وما كان يعتلج فى نفس الثـانى من شعور الاعتزاز والفخــر للكنيسة المسيحية وتمجيــدها وتقــديس أرواح شهدائها ، وليس بمستبعد ازاء هذا الشعور أن يكون المصدران على شىء من المبالغة ، ولكنهما أيضا يضمان الكثير من الحقيقة ·

---

(١٧٥) Id.
(١٧٦) Ibid. 15.

على اية حــال فان الاتجــاه العدائى السافرمن جــانب الامبراطورية الرومانية تجاه الكنيسة المسيحية فى هــذه الفترة بالذات جاء متأخرا جدا ، فلقد كان من المستحيل فى هذه الآونة ان تجتث جــذور نظام اصبح يدين له بالولاء قرابة خمس سكان العالم الرومانى · لقد اخفقت الدولة فى تحطيم الكنيسة(١٧٧) ·

---

(١٧٧) Cantor, op. cit. p. 43.